أحمد زكي تفاحة

حوار بين الفكر الديني والفكر المادي

دار الكتاب اللبناني بيروت



حوار
بين
الفكر الديني والفكر المادي

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

١٩٨٢

حِوارٌ
بَيْنَ
الفِكرِ الدّينيِّ والفِكرِ المادّيِّ

أحمد زكي تفّاحة

دار الكتاب اللبناني بيروت

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد:

فإن الحاجة ملحة الى طرق مثل هذا الموضوع، والضرورة قائمة، من جراء طغيان المادة على ناشئة عصرنا، حيث قد بهرت أبصارهم وأعمت بصائرهم وأصمت آذانهم، وجعلت على قلوبهم أغشية تمنعهم من الرؤية الواضحة والفكرة الصائبة، فجعلتهم لا يؤمنون إلا بما تقع عليه حواسهم من المادة والماديات، وبذلك أبطلوا عقولهم وأنكروا أرواحهم وأماتوا ضمائرهم، وتحولوا إلى عجماوات بهيمية صامتة، وأنزلوا انفسهم منزلة الحيوان، بتنكرهم للخصيصة الوحيدة والميزة الكبيرة التي للإنسان، وهو كونه يدرك بواسطة حواسه المادية، ويدرك بعقله ما هو فوق المادة أو ما يسمى بما وراء المادة أو الطبيعة، مما ليس للحس ووسائله ولا للعلم ومختبراته عين ولا أثر فيه، وليس للحس ووسائله والعلم ومختبراته، أن يدركا ما هو فوق مقدورهما وليس في متناولهما. ومن هنا أنكروا الخالق وتنكروا للمخلوق وأنكروا المرسل والرسول والرسالة (الوحي) والملائكة والآخرة (المعاد) وكل ما إلى ذلك تبع، لأن هذه من مختصات العقل وإدراكاته وليست من مختصات الحس ووسائله والعلم ومختبراته.

ومن الغريب أن علماء المادة يؤمنون بوجود أشياء وإن لم يتمكنوا من الوصول إليها ومعرفة كنهها، وإنما حكموا بها وقطعوا بوجودها تبعاً لوجود آثارها كالجاذبية والمغناطيسية والأشعة الكهربائية والأثيرية وغيرها من الأمور الطبيعية مما لا تقع تحت الحواس ولا يطالها العلم بمختبراته، ومع هذا كله فقد اعترفوا بها وأنكروا وتنكروا للخالق والروح والوحي والآخرة وكل ما هو مدرك بالعقل دون الحس.

وهم عندما يتنكرون وينكرون المدركات العقلية، فإنما بذلك يبطلون كل

منتجات العلم ومنجزاته، لأنه إنما توصل العلماء إلى هذه النظريات والمخترعات لا بمجرد وسائلهم الحسية وإنما بواسطة عقولهم ومدركاتهم العقلية، ولولا العقل ومدركاته واستنباطه واستنتاجه، لما تقدم الانسان ولما أنجز شيئاً مما توصل إليه حتى الآن.

ولما كان يتولى قيادة المادة في هذا العصر والدعوة إليها الحضارة المادية المتمثلة في الماركسية والرأسمالية في مشاطرتها لقيادة العالم نحو مادية حيوانية تعيد الانسان بأخلاقه وقيمه ومثله إلى حياة إنسان الغاب والبداوة، عندما كان لا يمتاز عن الحيوان بقليل ولا بكثير إلا بالصورة والشكل، حيث كان يعيش في أحراج الغابات وكهوف الجبال، فلا يستر بدنه شيء، ولا يمنعه شيء عن شيء، فلا يعرف الحلال ولا الحرام، ولا القانون ولا النظام ولا الالتزام ولا العدل ولا الإنصاف، بل كان يسطو بعضهم على بعض، ويأكل القوي الضعيف، كقطع الحيوانات الضارية والوحوش الكاسرة المفترسة.

وقد رأينا لزاماً علينا أن نتصدى لهذه الحضارة المادية بمذهبيها: الماركسية والرأسمالية، وأن نجري هذا الحوار بين الفكر الديني المتمثل في الاسلام وبين الفكر المادي المتمثل في الماركسية والرأسمالية، مع عرض لمقومات كل من الماركسية والرأسمالية والدين الاسلامي ومناقشتها والتعرض لفكرة التطور الداروينية ودحضها والمقارنة بين الحياة المادية والدينية وبيان الفارق ما بينهما.

وقد ألقيت هذه الموضوعات في ندوات طلابية مختلفة، وأحببت إخراجها إلى حيز الوجود ضمن مؤلف يجمع شتاتها لتعميم الاستفادة منها، حيث إن الموضوع من الأهمية بمكان، والبحث عندما يجري بين الفكر الديني والفكر المادي يأخذ طابع الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال، والإصلاح والافساد. ومن الطبيعي أن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، فإن سبق الباطل، كالذي نرى، فليس لقوة ذاتية كامنة فيه، وإنما لموافقته لأهواء الناس وشهواتهم وإطلاق سراحهم من كل القيود، والحق يقيد أهله بمنهجه ويصوغهم ببوتقته، وهذا إنما يتقبله القليلون وإنما يوفق له المحظيون الذين يكونون مع الحق ويكون الحق معهم.

فأسأله سبحانه التوفيق والتسديد فإنه خير معين، كما وأسأله سبحانه أن يتقبل منا هذا الجهد اليسير ويعفو عنا الكثير، وأن يجعله زاداً لنا يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بيروت: في ربيع الثاني سنة ١٤٠١ هـ. وشباط سنة ١٩٨١ م.

أحمد زكي تفاحة

الجاهلية

★ الجاهلية في اللغة والقرآن
★ سمات الجاهلية وأوصافها
★ الناس في فهمهم للجاهلية ثلاثة
★ القرآن والحضارة
★ المؤمنون الملتزمون والمتحللون



الجاهلية

هذا اللفظ من الألفاظ التي أدخلها الاسلام إلى اللغة العربية وقد ضمنها مفهوماً إسلامياً، وردت في الكتاب والسنة.

وقد اختلفت الآراء في المعنى الذي أريد من هذا اللفظ:

١ - فقد ذهب بعض الباحثين ومنهم بعض المستشرقين إلى أن هذا اللفظ مشتق من الجهل ضد العلم والمعرفة، أي الجهل المطلق.

٢ - وذهب بعض آخر إلى أنه جهل خاص وهو الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين ومن هؤلاء الدكتور فيليب حتي.

٣ - ويرى المستشرق كولد تسيهر أن المقصود من كلمة جاهلية - هو السفه - الذي هو ضد الحلم وتشمل الأنفة والخفة والغضب إلى أمثال ذلك.

٤ - ويذهب أنجلز إلى أن الجاهلية هي البربرية في علم الاجتماع. ففي طور البربرية يبدأ الانسان باستخدام الحديد لصنع الآلة وأدواته، ثم ينتقل بعده إلى طور الحضارة نتيجة لاكتشافه الكتابة بالحروف الهجائية - فمثلاً - سكان الجزيرة قد بلغوا المرحلة التي تم فيها توزيع العمل الى فلاحة وزراعة وأهل وبر وتربية أغنام. أما في الجاهلية فقد بلغوا المرحلة الثانية وهي انقسام المجتمع إلى أهل الصنائع والزراع. وإن عرب الجزيرة في القرن الخامس والسادس الميلاديين كانوا يمرون في مرحلة انتقالية من الجاهلية الجهلاء إلى الحضارة والتمدن[١]. فالجاهلية بناء على هذا الرأي اسم لمرحلة اجتماعية (البربرية) مقابل مرحلة الحضارة.

---

(١) ميليانيف: العرب والإسلام والخلافة العربية، تعريب الدكتور أنيس فريحة.

٥ - والتحقيق في موارد استعمال مادة جهل ومشتقاتها وعلى الخصوص كلمة جاهلية في كتاب الله تعالى يكشف أن لفظ الجاهلية يراد منه ما يقابل كلمة إسلام، فيكون المراد من الجاهلية، منهاج كامل في الحياة، مقابل منهج الاسلام، قال تعالى: «أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»[1].

الجاهليّة في اللّغة والقرآن

الجاهلية في اللغة لها عدة معان: منها عدم المعرفة، فتكون مقابل العلم.

ومنها الحمق والغضب، فتكون مقابل الحلم.
ومنها السفه، وهو وضع الشيء في غير محله.

أما الجاهلية في القرآن: فتشمل هذه المعاني، وينص على أنها حالة نفسية ترفض الايمان بالله والاهتداء بهدى الله والحكم بحكمه والتخلق بأخلاقه، ثم يقع الانحراف الحتمي نتيجة لهذا التخلف والرفض باختلاف صوره في المجتمع.

ولذا فهي ليست محصورة في مجتمع دون آخر، ولا في مكان دون مكان، ولا في زمان دون زمان، كما أنها توجد في مجتمع متخلف حضارياً، كذلك توجد في مجتمع متقدم، بل شأن الجاهلية الحديثة أوعر وأخبث، لتعدد وسائل الفساد والجهل بما أحرزه العلم من تقدم، ووصل إليه من نتائج مادية، هيأت الوسائل للفساد والكيد المنظم.

فالجاهلية والهوى سيان، فالذين يرفضون الايمان بالله وهدى الله والحكم بما أنزل الله هم جاهليون، أيّاً كان حظهم من العلم والحضارة والمدنية[2].

---

(١) المائدة: آية ٥٠

(٢) يراجع بين الجاهلية والاسلام ص ٢٣٥ - ٢٣٧

سمات الجاهلية وأوصافها

١ ـ عدم الايمان بالله ورسله وملائكته وكتبه.

٢ ـ عدم التسليم له في حاكميته وشريعته، لأن الايمان يقضي إفراده سبحانه بالألوهية والاسلام يقضي إفراده بالحاكمية، فالجاهلية تنشأ من عدم إفراده بالألوهية وعدم إفراده بالحاكمية، فتشترك مع الله آلهة أخرى، ولا تحكم بما أنزل الله «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتَّبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك».

٣ ـ وجود طواغيت في الأرض يهمهم أن يصرفوا الناس عن عبادة الله والحكم بشريعته ليتحولوا إلى عبادتهم والحكم بشريعتهم «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات».

٤ ـ البعد عن منهج الله وإن كان كامناً في الفطرة البشرية ذاتها والانحراف في تيار الشهوات.

الناس في فهمهم للجاهلية ثلاثة

١ ـ الطيبون الساذجون: الذين لا يشكون في صدق ما وصف الله به الجاهلية قبل الاسلام، ويفسرون الجاهلية في الشرك الساذج، والوثنية البدائية وأخذ الثأر والمفاسد الخلقية التي كانت سارية في البيئة العربية، ومن ثم يحصرون هذه الصورة المحدودة في زمان ومكان معينين في المجتمع العربي.

٢ ـ الخبيثون المتحذلقون: الذين يجادلون عن الجاهلية العربية، وأنها لم تكن جاهلية ـ كما وصفها القرآن ـ حيث كان في البيئة العربية شيء من الحضارة المكتسبة لاتصالهم بالرومان والفرس، كشفت عنها دراسات المستشرقين.

وهؤلاء يفسرون الجاهلية بما يقابل العلم والحضارة، ومن ثم يجهدون أنفسهم ـ غير مأجورين ـ بدوافع غير إسلامية ـ وقد أشار إليها الرسول (ص) : ليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية ليثبتوا أن العرب كانوا ملمين ببعض الحضارة، وغير خاوين من الحضارة والقيم. فقد كان لديهم من الفضائل: الكرم والشجاعة، واغاثة الملهوف، وبذل النفس في سبيل الشرف أو الكرامة وما شاكل ذلك، ومن ثم فوصف القرآن لهم بالجاهلية، ليس حقيقة تاريخية، ولذلك فالقرن العشرون عندهم هو قمة الارتقاء البشري الذي يحلم به الانسان.

٣ ـ المؤمنون المدركون: يرون الجاهلية ـ كما يراها القرآن الكريم ـ ليست لها صور معينة محدودة لفترة من التاريخ ذهبت لغير رجعة ـ كما يراها الطيبون ـ وليست هي المقابل لما يسمى العلم والحضارة والمدنية على إطلاقها ـ كما يراها الخبيثون ـ سواء والجاهلية العربية، أو القرن العشرون.

وإنما الجاهلية ـ كما عناها القرآن الكريم وصوَّرها ـ حالة نفسية، ترفض معرفة الله، والاهتداء بهدى الله، والحكم بما أنزل الله، فكلما تحقق هذا الرفض ـ سواء كان قبل الاسلام أو بعده ـ تحققت الجاهلية. قال تعالى: «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»[١].

القُرْآن وَالحَضَارَة

لقد حكى القرآن الكريم عن حضارات شتى في أمم قد خلت، كانت أكثر تحضراً من العرب حين نزل القرآن، وبعث فيهم نبي الاسلام، ومع ذلك فقد اعتبرها الاسلام جاهلية، لأنها لم تهتدِ بهدى الله، قال تعالى: «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذَّبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون»[٢].

---

(١) المائدة: آية ٥٠

(٢) الروم الآيتان ٩، ١٠

فيوجه القرآن الكريم العرب الجاهليين إلى النظر في أمر جاهلية سابقة ليروا نتاجها ويحذروها، فلا يكذبوا بآيات الله، بل يؤمنوا بها ويهتدوا بهديها ـ وإن كان لا يستخدم هنا لفظ الجاهلية بالتحديد وإنما يستخدم مدلولها ـ فيخاطب العرب الجاهليين بما معناه: أن هؤلاء مثلكم في الجاهلية، وإن كانوا أكثر منكم قوة وتعميراً للأرض وحضارة ومدنية، فخير لكم أن تخرجوا من الجاهلية التي تشملكم وتشمل تلك الحضارات المنحرفة بأن تؤمنوا بالله، وتهتدوا بهديه، وتحكموا بحكمه، وتعتنقوا الاسلام.

المؤمنون الملتزمون والمتحللون

١ ـ المتحللون المنجرفون ممن أخذتهم الجاهلية الحديثة في طوفانها، وحليت الدنيا بأعينهم وراقهم زبرجها، يرفضون أن يعودوا إلى هدى الله، لأن هدى الله ـ عندهم ـ هو الجهل والخرافة والأسطورة والرجعية والتأخر والانحطاط والهمجية وو...

وهم يزعمون أنهم خرجوا منه عامدين ـ لغير رجعة ـ ليتحضروا ويتمدنوا ويخرجوا من الظلمات إلى النور، وقد صدق الله العلي العظيم حيث قال: «فاستحبُّوا العمى على الهدى»[١] وقال عزّ من قائل: «كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم تشابهت قلوبهم»[٢].

فالجاهلية صنف واحد من البشر على مدى التاريخ، وهم أحزاب الشيطان وأتباعه ودعاته وأنصاره.

٢ ـ والمؤمنون، ليس للشيطان أن يستولي عليهم كما قال تعالى: «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتَّبعك من الغاوين[٣]» وقال تعالى: «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»[٤] وقال سبحانه: انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون[٥]، الذين إذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها»[٦].

---

(١) فصلت آية ١٧
(٢) البقرة آية ١١٨
(٣) الحجر آية ٢٢
(٤) النحل آية ٩٩
(٥) النحل آية ١٠٠
(٦) الاعراف آية ٨

كل الجاهليات لا تؤمن بالله الايمان الحق، قديمها وحديثها، فالقرن العشرون والحضارة والمدنية والعلم والكشوف والتنظيم والتنسيق وسيطرة الانسان على الطبيعة والذرة والصاروخ وغيرها...، كل ذلك جاهلية ما لم تؤمن بالله وتهتدي بهديه وتحكم بحكمه.

كانت الجاهلية اليونانية تتميز بعبادة العقل، وبعبادة الجسم، والجاهلية الرومانية بحلبات المبارزة الوحشية، والجاهلية الهندية بنظام المنبوذين، وتخصيص بغايا لخدمة المعابد يخدمنها ببذل أعراضهن المدنسة، ويكون ذلك جزءاً من الدين (الهندي) والجاهلية المصرية القديمة بعبادة فرعون، واستذلال كيان الشعب كله في خدمة ذلك الفرعون المقدس.

وكذلك تتميز الجاهلية الحديثة بسماتها الخاصة التي تفردها بين الجاهليات، بعد أن تشترك معها في بقية السمات.

وهي أنها تعبد العلم، فالجاهليون الحديثون في كل يوم يأتون بآلهة ويكفرون بها في اليوم الثاني عندما يأتي ماديون بنظريات علمية أخرى[1].

---

(١) جاهليه القرن العشرين.

أخلاق المجتمع الجاهِلي قَبل الإسلام

★ الحكم والاقتصاد والاجتماع قبل الاسلام هناك بعض العوامل تدمر البشر



أخلاق المجتمع الجاهلي قبل الإسلام

فالعالم المسيحي يمكن تقسيمه الى قسمين:

قسم، ذهب إلى النظرة التشاؤمية للحياة الرافضة لمتاعبها وزينتها يمثلها أولئك الذين استجابوا لبعض وصايا المسيحية برفض هذا العالم واعتباره شرّاً ورجساً. وهؤلاء مختلفون في مدعى رفضهم.

ولعل اليهود وجدوا في واقع كهذا أحد العوامل الكبرى التي هيأت لهم فرصة كهذه لإنشاب مخالبهم الشريرة في قلب أوروبا ومكنت لهم أن يمتصوا بالربا جهد الفلاح المسيحي ويسيطروا بالربا على الاقطاعي المسيحي إذ كان يندفع إلى التخلص من سوء حالته المالية بالغلو في اعتصار جهد الفلاح البسيط والاندفاع في مغامرات عسكرية ضد جيرانه الاقطاعيين.

وقسم ذهب الى النظرة المادية التعسفية إلى الحياة، هذه النظرة التي هي وريثة الوثنية الرومانية ذات المزاج الحسي الشهواني، وقد أمعن هؤلاء في التبذل - بالرغم من كونهم مسيحيين - وأصبح الهم الوحيد لهم اكتساب المال من أي وجه ثم إنفاقه في الترف وإشباع الشهوات.. ونتيجة لهذا انتشرت الخيانة والرشوة وكل سوء في الحياة العامة.

أما اليهودية، فبعد أن حرّف اليهود كلام الله وكفروا وضلوا ضلالاً بعيداً، قد تحولت الى دين خرافي عنصري قومي شعوبي يؤجج في اليهود الروح العدوانية لكل الشعوب. وغيرت تعاليم التوراة بعد تحريفها وجعلها عبارة عن وصايا من إلّه اليهود أحط ما يمكن أن ينفتق عنه خيال مجرم عريق في الإجرام في وحشية وانحطاط وشر في كل ميدان، وتحول اليهود في العالم منذ ذلك الحين إلى فريق شرير يزرع الشر في العالم في كل مجتمع.

والعالم الفارسي فقد كانت الزرادشتية والمجوسية، دين الدولة الرسمي وقد تحولت إلى وثنية سخيفة لا تهذب ضميراً ولا تبعث نحو مثل أعلى مما سبب

اندفاع الناس في تيار شهواني مادي في ظل نظام يجعل الناس رقيقاً أو أشبه بالرقيق لطبقة الأشراف ورجال الدين ورجال الحرب.

وقد انتشر في ظل الزرادشتية الزواج بالمحارم من البنات والأخوات ومارسه الأباطرة أنفسهم وكان الملوك في ظل الزرادشتية قد رفعوا عن مرتبة الانسان بما يضفى عليهم من عنصر إلهي يليهم الاشراف ورجال الدين وقادة الجيوش، بينما انحطت عامة الناس عن مرتبة الانسانية من العبودية.

وجاءت المانوية لتصلح ما فسد من الوضع الديني والأخلاقي فبشرت بنزعة صوفية تقف موقفاً سلبيّاً من العمل البشري الانتاجي، كما تقف موقفاً سلبيّاً من الأسرة.

وجاءت بعدها المزدكية لتصلح ما فسد من أمر الدين وتصحح من وضع الانسان الفارسي فتحولت إلى إباحية فاجرة تدعو إلى شيوعية النساء والأموال.

والصين موزع بين وثنية صوفية مذهبية تقف من الحياة موقفاً سلبيّاً وترى في المرأة كائناً دنساً منحطّاً، وبين كونفوشية مادية لا تتعدى العالم المادي المحسوس، وبين بوذية تحولت إلى وثنية غليظة.

والعالم الهندي انتشرت فيه الديانات الوثنية بصورة مزرية بحيث بلغت الآلهة فيها حدّاً يفوق الإحصاء، وكان فيها من عبد أشخاصاً من البشر ورجالاً ومعادن مخصوصة وأنهاراً وبقراً ونجوماً وكان بعض كهنة المعابد من أشد الناس غلواً في الفسق والفجور وتحولت بعض المعابد إلى مواخير وغدا الزنا أسلوباً من أساليب العبادة، وثنية عجيبة غريبة، ويكفي هذا النظام انحطاطاً ما نتج عنه من نظام النبذ الذي اعتنقه عشرات الملايين من الناس المنبوذين.

أما بلاد العرب فقد كان السائد بينهم ما توفر في الوثنيات الأخرى من الفن وإرضاء حس الجهال فضلاً عن أن تلهم أتباعها مبادىء اخلاقية وشرائع اجتماعية. كانت القسوة والغلظة والسكر والزنا والربا والسلب والنهب ووأد البنات والأبناء خشية العار والفقر.

وكان منهم من يكره إماءه على الزنا وينكح زوجة أبيه ويجمع بين زوجته وأختها في النكاح وكانت الحرب عندهم سبيلاً من سبل الكسب ولم يكن لمفهوم العدالة القانونية من وجود، بل كان القصاص موكولاً إلى الفرد أو إلى العشيرة[١].

---

(١) يراجع بين الجاهلية والاسلام ص ٢١ ـ ٢٩

الحكم والاقتصاد والاجتماع قبل الإسلام

١ ـ وفي الحكم كانت ثلة قليلة من الملوك والأمراء في شتى أقطار الأرض تمارس الحكم على ملايين البشر استبداداً مطلقاً يستند إلى دعوى حق آلهي في الحكم ادّعاه هؤلاء الملوك والأمراء لأنفسهم وبررته فلسفة الكهنة التي كانوا يدعمونها وتدعمهم وطبقة النبلاء الاقطاعيين ولا تستثنى من ذلك دولة واحدة حتى روما، لقد كان العدل الروماني الذي يضرب به المثل، وهي أكثر الدول تقدماً في فن الحكم والسياسة آنذاك، وكان العدل الروماني مقتصراً على الرومانيين وحدهم أما شعوب المستعمرات في آسيا وأفريقيا، فكانت عند الرومان عبارة عن حيوانات سخرتها الآلهة لخدمتهم وحدهم.

وبالإجمال كان الحكم في عالم ما قبل الإسلام لوناً من السيطرة غير المحدودة تهدر فيها أبسط القيم الإنسانية، ويسحق فيها الإنسان بلا رحمة ولا يقام فيها وزن لأي مبدأ أخلاقي، وكان الحكام بعيدين عن الشعور بالمسؤولية، مسؤولية الحكم والسلطة التي يتحملها الحاكم في عالم ما بعد الاسلام.

٢ ـ وفي الاقتصاد كانت موارد الشعوب وثمرة جهدها مخصصة لنفقات هذه الحفنة المترفة الفاسدة من الملوك والأمراء وبطانتهم من نبلاء ومغنين وجوار ومضحكين وغيرهم ممن يتصل بهم بينما الكثرة الساحقة من الشعب تجوع وتعرى. وكانت الضرائب تجبى في ظل أقسى الشروط وبدون تقدير ثابت ومعين للمقدار المطلوب أداؤه بل كان رهناً برغبة الحاكم والويل لمن يعجز عن أداء ما يطلب منه. وكان عالم ما قبل الإسلام قائماً على تصنيف الناس إلى طبقات توجب تفاوت أقدارهم وأرزاقهم وقيمهم وحظهم من الكرامة الانسانية، وكان نصيب أولئك الذين لا يحتلون قمة الهرم الطبقي أو مكاناً قريباً منه الامتهان والزراية والقيام بخدمة الطبقات العليا، كان هذا في الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية ومستعمراتها وبررته فلسفاتهم وآراء مفكريهم، كما كان موجوداً بشكل أو بآخر في جميع مواطن الحضارات الأخرى في بقية العالم.

ومما يتصل بعالم المرأة ما قبل الإسلام فقد كانت مخلوقاً ناقص الإنسانية في أفضل الحالات وأحسنها، وقد ساعدت في اعطاء هذه الفكرة

عنها الأديان والفلسفات . وكان موقف الرجل منها يتراوح بين نبذها التام وبين اعتبارها مصدراً للهو والاستمتاع في أفضل الحالات ، وأما النظر إليها كانسان كامل الإنسانية حر مسؤول فكان أمراً غير وارد على الإطلاق .

وكان عالم الجاهلية حزباً عفناً منحلاً سرى الانحلال والخراب في جميع طبقاته ومؤسساته ، فالدين فيه انحدر إلى مستوى الخرافة والأسطورة وتسبب في ضياع الإنسان ، والأخلاق لم تعد قائمة على العقل والفطرة الصافية ، وإنما على الهوى والعاطفة ، أو على نظرة خاطئة إلى مركز الانسان في الحياة . فبدلاً من أن تكون سبيلاً لنمو الانسان ورقيه أصبحت سبباً لضياعه وانحطاطه ، والحكم تحوّل إلى استرقاق، والاقتصاد خصص ليغذي نفقات فجور طبقات الحكام والنبلاء المقربين إليهم ، وعلاقات الناس فيما بينهم فسدت إلى أبعد مدى ، وكان هذا الحال في مراكز الحضارة والمدنية والتقدم العقلي . فما بالك بمواطن الهمجية والتأخر؟ .

ولا يفوتنا أن ننوّه في ختام الحديث بأن جاهلية ما قبل الاسلام ، على ما سادها من ظلام ، لم تكن تخلو من مناطق النور ، ففي الظلام السائد آنذاك ، كانت توجد هنا وهناك واحات لا تزال مصابيح الهدى مضيئة فيها في جزيرة العرب متمثلة بجماعة الحنفاء ومتمثلة بجماعة أخرى مشابهة في كثير من بلدان العالم القديم ، وكانت هذه الجماعات تشكل رفضاً عملياً ونظرياً لعالم الجاهلية ومُثله وأساليبه ، وكانت هذه الجماعات تعي بوضوح أن عالم الجاهلية لا يمكن أن يستمر ، وأنه لا بد أن يأتي نور الله وهدى الله ليضيء الظلمات ويمحق الباطل وينقذ الانسان ، فيصبح وضعه في الحياة والكون على الصراط المستقيم . وكان وعي هذه الجماعات من الحنفاء وغيرهم في العالم صادقاً فأشرق نور الإسلام .[1]

هناك بعض العوامل تُدمّر البشر

فبعض هذه العوامل يكون تدميرها روحياً ومعنوياً وأخلاقياً كالكفر والمعاصي الفردية ، أو القيام بالأمور غير الأخلاقية .

وبعض هذه العوامل تدمّر البشرية اقتصادياً واجتماعياً وحياتياً ، كالظلم

(١) يراجع بين الجاهلية والاسلام ص ٣١ - ٣٥

والاحتكار والاستغلال والاستبداد والفتن وأمثالها من أمهات الرذائل والمفاسد الاجتماعية .

ويجتمع هـذا كلـه تحت عنـوان الظلم ، إذ إن الظلم إمـا أن يكون فردياً يعود على الفرد نفسه كالكفر والمعاصي المستتر بها ، وإما آن يتعدى الفرد ليشمل الأفراد والمجتمع كالاعتداء على الآخرين بالاستبداد بهم واحتكار أموالهم ونهب ثرواتهم والتسلط عليهم وعلى مقدراتهم وقيمهم وأخلاقهم بل وقد يتعدى ذلك إلى التسلط على عقيدتهم

ونحن نجد أن القرآن الكريم يجعل سبب ذلك الظلم والطغيان والتكذيب بآيات الله وتعاليمه ، وأن الكافرين كانت أعمالهم هذه تكشف عن رفضهم لكل نظم الله وسننه وأحكامه وقوانينه حيث كانوا يستغلون عباد الله ويستعبدون مخلوقاته لمصالحهم وأنانياتهم الشخصية وشهواتهم الدنيوية .

وهؤلاء الطغاة والظلمة يتكونون من الحكام الظالمين وأعوانهم المنفذين لأحكامهم ومن الرأسماليين والاقطاعيين عبر العصور ، وكان في مقدمة هؤلاء المتعاونين مع الحكام الظالمين اليهود في العالم قديمه وحديثه ، فلا تكاد تجد دوراً للاستغلال واستثمار الانسـان إلاّ وتجد اليهودية العنصرية لها الدور الكبير أو الأكبر في استعباد العباد ومناهضة دعوات الاصلاح منذ زمن نبي الله موسى عليه السلام . فقد كان القطاع الأكبر يتعاون مع قارون بمناهضة رسالة النبي موسى(ع) رغم كل ما كان يأتيهم موسى به من البينـات ورغم أنه أطعمهم المن والسلوى بغير جهد وتعب حتى إذا بعث الله رسوله عيسى كانوا أول من ناهض دعوته وحاول قتله .

ولما بعث الله رسوله وخاتم أنبيائه محمداً(ص)ناهضوه ونصبوا له ولرسالته العداء ولا زالوا حتى اليوم ، رغم أنهم كانوا قـبل أن يـبعث اللـه رسولـه محـمداً يبشرون بقدومه ويتحدثون ببعثتـه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى : « وكانوا يستفتحون على الذين كفروا . . . » البقرة - ٨٩

وكان الرسول في مكة وهم يستفتحون به على العرب فلما هاجر إلى المدينة عاهدهم رسول الله على أن لا يعينوا عليه عدوّاً . ولكنهم سرعان ما نقضوا العهد وصاروا مع المشركين حرباً على الرسول والرسالة وعلى الإسلام والمسلمين ، وهذه هي طباع اليهود في القديم والحديث في عصيانهم لله تعالى وحربهم لأنبياء الله وعباد الله المؤمنين في كل مكان وزمان .



الجاهلية الحديثة



الجَاهِلِيَّة الحَدِيثَة

الجاهلية الحديثة هي الحضارة التي أبدعها الانسان الأوروبي منذ عهد النهضة إلى يومنا هذا، مستفيداً من هذا الإنجاز الكبير ومن كل إبداعات العقل البشري على مدى التاريخ.

وقد وسم الانسان الأوروبي حضارته بميسمه الخاص، فهي ليست عالمية من حيث منبعها وإن كانت عالمية من حيث الانتشار.

كانت حين ولدت حضارة أوروبا، حضارة إنسان أوروبا. وبقيت كذلك لم يتغير محتواها الداخلي ومعناها فهي تمثل إنسانها الذي أبدعها وسيطر بها على الآخرين واستخدمها لمصلحته، فهي حضارته وليست حضارة الآخرين، وإنما اكتسبت صفة العالمية بسبب التفوق المادي الذي يتمتع به مبدعوها وبسبب الضعف الفكري والعقيدي الذي يعاني منه الذين استطاعت هذه الحضارة أن تضعهم تحت سيطرتها.

نحن لا نقلل من أهميتها المادية بما أنجزته من تقدم مادي يسرت به الحياة بما لم يكن يتصوره الانسان قبل هذا العصر. وهذه الانجازات المادية هي فضيلتها. ونحن عندما ندينها لا نقلصها من كل تقدم مادي وإنما نريد أن يكون هذا التقدم متمماً لسعادة الانسان، ولا يبقى عاملاً يستلب إنسانيته في مقابل أن يعطيه وَهْمَ السعادة بما أعطته من تقدم مادي وسلبته الفضيلة وأعطته وسيلة السعادة.

إن مبدعي الحضارة الحديثة قد تعاملوا مع الانسان كما يتعاملون مع الأشياء التي دائماً تخضع لعامل الكمية والفائدة وسد الحاجة تبعاً للمصلحة الذاتية الضيقة، والتعامل مع الانسان على أساس المصلحة الشخصية يُحدث الكارثة، وقد حصل في نطاق الحضارة الأوروبية، فاخضعت التعامل مع الانسان لقانون

الأشياء، فلم يعد الانسان يمثّل قيمة مقدسة في حد نفسه. لقد خضع العنصر الانساني لحاجات الاقتصاد والحركة الصناعية - كما هي الحال في خامات الحديد والقطن وأمثالها - وهكذا تحطم الانسان المتكامل في داخل الأوروبي فوجد الانسان المادي الذي بسط نظرته خارج أوروبافعامل الانسان غيرالأوروبي كأنه شيء يقدم إمكانية كبرى للاستثمار والاستمتاع، ولم يعامله كأنه مماثل له في الانسانية يدخل معه في شراكة حضارية، فسخرت الحضارة الغربية بتقدمها العلمي المادي الطبيعة وسخرت أيضا الانسان لإنجازاتها في حقل الطبيعة، ونحن نريد حضارة تستمد عظمتها من المعطى الانساني لا من التقدم المادي وحده.

فالحضارة الغربية، منذ نشأتها في أول القرن الخامس عشر، تقوم على أساس مادي لا يعترف بقيمة حقيقية لغير المظاهر المادية للحياة، إذ انها استمدت قيمها وأفكارها وأنماط سلوكها من الحياة الرومانية الوثنية. ولقد عاد الاستعمار الروماني الوثني الجديد على يد النهضة الغربية الحديثة، ولقد استعاد الانسان الغربي روحية وعقلية سلفه القديم حين نظر إلى العالم كفريسة دسمة لا بد له منها لإشباع نهمه وجوعه. إن الاستعمار الغربي لم يولد بعد ظهور الرأسمالية وإنما ولد قبل ذلك حين صرف عينيه عن الإنجيل إلى أدبيات وأفكار روما الوثنية قبل الأمبراطور قسطنطين. ولقد ولدت الحضارة الغربية على أنقاض المسيحية وليس بتوجيهها، وإن المسيحية في الحضارة الأوروبية لا تعدو أن تكون غشاء ظاهرياً فقط، لقد تمكنت المسيحية في العصور الوسطى أن تصبغ مظاهر الحياة الأوروبية بصبغتها الكنسية وبسلطانها السياسي الذي مكنها أن تؤمن لنفسها وأفكارها وجوداً ما في وجدان الانسان البسيط، ولكن قد تبدل كل شيء منذ بداية النهضة الغربية[1] وهي كانت ولا تزال تقاوم الدين وإن كانت أميل إلى أن تهادنه من ناحية الشكلية الدينية في أبهت صورها وأضعفها.

إن الحضارة الأوروبية المادية تقوم على ركيزتين: النزعة العلمية التجريبية والنزعة الاستعمارية. ونعني بالنزعة العلمية التعامل مع الطبيعة والانسان على أنهما ينبغي أن يخضعا للقياس الذي تخضع له المادة. فكل ما لا يخضع للقياس المادي يعد شاناً شخصياً للفرد وليس قيمة حياتية عامة لبني الانسان.

إذن فما لا يخضع لقياس علم التجربة المادية فهو غير علمي فهو خيالي أسطوري مثالي رجعي. ولذا لا احترام له فلا يدخل في الحياة العامة والسياسة القومية. واستولت هذه النزعة المادية على إنسان الغرب ورؤيته للأشياء، وقد

(١) يراجع الاسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ - ٤٠

بلغ الصراع ذروته بين الحضارة الغربية وبين الكنيسة والاقطاع، وكانت الغلبة أخيراً للحضارة الغربية المادية فوضعت الكنيسة والإقطاع تحت مجاهرها وتساؤلها. وانتهى هذا التساؤل برفض كل قيم الكنيسة وحتى إلهها استبدلت به شعار الإله الجديد (العلم) الذي حكم عللها بالبطلان.

كانت النزعة المادية تمثل حضارة أوروبا بالنسبة إلى الطبيعة والانسان. فقد قامت الروح الاستعمارية الأوروبية منذ اكتشاف أمريكا على التعامل مع الانسان الآخر مجرداً عن صفته الانسانية، تتعامل معه على أنه شيء منتج، على أن الأوروبي يتعامل مع الطبيعة والحيوان على أنها أشياء منتجة، إلا أن الانسان شيء منتج ولكنه عامله كأقل من الحيوان، لأنه يعامل الطبيعة والحيوان على أنها أشياء منتجة فيُحسّن فيها ليستغل فائدة أكثر، ويفرض هذا الأوروبي على الانسان المسْتَعْمَر واقع الانحطاط والضعف وعدم الثقة بالنفس ليتمكن من سلبه ونهبه واستغلاله دون مقاومة، خشية أن يَزدهر الانسان ويقوى فيحرم الأوروبي من مصادره المجانية لرخائه وسعادته.

إن الذي يحرك الحضارة الأوروبية هو الحافز المادي، وهو تسهيل الحياة الممتعة المائعة. ثم لا ترى شيئاً بعد ذلك يهتم به ويبذل جهداً من أجله.

فما هي مكانة الانسان في الحضارة الأوروبية؟. المفروض أن يكون الانسان غاية تبذل الجهود لتوفير كرامته وسعادته، ولكن بالعكس، فإن الانسان فيها وسيلة يستخدم ويستغل من القادرين على استغلاله.

في العالم الرأسمالي القديم كان العامل وسيلة لتوفير فرص الرفاهية للطبقة القادرة دون عناية بروحه وجسده، وأما العالم الرأسمالي الحديث، فالذي جعل للعامل حقاً ببعض جهوده هو ثورات العمال المستغلين وتحدي النظام الشيوعي للرأسمالية، وليس أخلاقيات الرأسمالية، فهي بلا أخلاق، وليس نظامها، بل إنما الضغوط من خارج النظام الرأسمالي من الطبقة العاملة ضحية هذا النظام، ومن النظام الشيوعي ضد هذا النظام.

وأما العالم الشيوعي فالانسان فيه وسيلة تستخدمه لتوفير الرخاء المادي للمجتمع (هذا هو الشعار) وعشرات الملايين سحقت حتى الموت ومئات الملايين شوهت حياتها من أجل توفير الرخاء المادي للمجتمع.. وأي مجتمع هذا؟ إنه لفظ يحكى لا معنى له ولا وجود لمعناه. إنه كائن تجريدي لا نعرفه ولا نعلمه. أجل إن عشرات الملايين التي ماتت ومئات الملايين التي شوهت

حياتها، قد تبين فيما بعد ذلك أن المجتمع هو هذه الطبقة الجديدة الحاكمة والممسكة بزمام الادارة التي تمسك بيدها كل شيء من إبرة الخياطة إلى الصاروخ العابر للقارات. لقد تبين أن المجتمع يعمل من أجل هذه الطبقة ورخائها وسلطتها واستمرار نفوذها وزهوها أمام قيادات العالم الرأسمالي، وأخيراً بدأت حياة الفرد في العالم الشيوعي تتجه نحو اليسر خشية أن تجتذب الحياة الرأسمالية مئات الملايين من الناس الذين يوعدون بالجنة على الأرض وهم يعيشون في الجحيم.

والتغيير الذي طرأ على وضع الانسان المستضعف في أوروبا الغربية والشرقية فأدخل عليه اليسر المادي لهذه الحضارة، إنه التغيير لكمية المستفيدين والمستغلين وليس تغييراً في نوعية الحضارة، وإلا ففي مقياس التقدم الروحي والإنساني لا تزال حضارة أوروبا كما بدأت مفلسة في هذا المضمار. إن العلاقات الانسانية بين الناس تتهدم باستمرار وتفقد قيمها لتترك كل انسان يعيش لنفسه، ليعيش وحيداً في غربة قاتلة عن الانسان الآخر، إن الذي يجمع الناس ليس علاقاتهم الانسانية. إنه العمل والحقوق واللهو وليس الصداقة والحب والشعور بالوشيجة الانسانية إنه الشعور بالوحدة والانفراد هو شعور انسان الحضارة الأوروبية، الانسان الذي سحق إنسانيته في منابعها الحقيقية في الدين والعاطفة البريئة الصافية من أجل الوصول إلى التسلط على الطبيعة وعلى الانسان الآخر فامتلك الطبيعة وسحق الانسان الآخر، ومن أجل شهواته ونزواته وسيطرته، وبذلك خسر الانسان الأوروبي نفسه.

هذه المادية للحضارة الأوروبية التي نسجت إنسانها الأوروبي كنسيجها المادي المعقلن قد سببت في نمو مجموعة من الأعراض فيه، كالحيوانية واللا أخلاقية وروح العدوان.

الانسان حيوان. هذه سمة الانسان عند الحضارة الأوروبية المادية، واليونان قد عرّفوا الانسان بأنه حيوان ناطق فيزوه على الحيوان بالقوة العاقلة المفكرة الناطقة المعبرة مع الاقرار بأن الحيوان والانسان يشتركان في الغرائز.

أما القرآن الكريم فقد صحح نظرة اليونانيين فبين أن مفهوم هذه القوة أوسع وأشمل، وأن وظيفتها أكبر من مجرد تدبير هذه الحياة على وجه المصلحة والمنفعة الذاتية. فبين أن هذه القوة تجعل الانسان على اتصال بعالم الغيب عن طريق الايمان. هذا البعد الجديد لهذه القوة العاقلة المعبر عنها بالقلوب والأفئدة وخاصية الغيب هي التي تميز الانسان عن الحيوان، ولو اقتصر أمر الانسان على

مجرد تدبير مصالح على مستوى المنفعة الشخصية لكان الانسان كبقية فصائل الحيوان، إذ أوتي كل واحد منها الادراك المناسب لتكوينه وظروف عيشه (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

فالانسان لا يتفرد من حيث هو حيوان ولا من حيث هو عاقل فقط، وإنما يتفرد بأنه يؤمن بالغيب وأنه يرى ما وراء المادة وما فوقها.

لقد كانت نظرة الحضارة الأوروبية المادية للانسان على أنه حيوان، ولم يعد الانسان فيها شيئاً وراء جسده لا روح فيه لأنها غير موجودة، لأنه لا يمكن التأكد من وجودها في مقاييسها المادية والمختبرية. وتبعاً لذلك فقد تنكرت لكل القيم والاعتبارات التي تقوم على فكرة وجود الروح. ولقد كان دارون من أكبر المساهمين في هذه النظرة الى الانسان وتجريده من أي امتياز خاص عن الحيوان، وذلك على اساس نظريته التي أطلق على أساسها أحكاماً جازمة ما كان يسمح له بإطلاقها بحسب الروح العلمية، ولكن فعل ذلك وغدت نظريته هذه ذات مدارس متشعبة وهي نظرية التطور والبقاء وأن البقاء للاصلح، للانسان الأبيض الحضاري المادي. ولقد أبطل العلم صحة نظريته هذه[1]. ثم جاء بعد دارون فرويد في مجال علم النفس فعزز النظرة الحيوانية للانسان على كل صعيد، وزعم أن كل الخصائص الانسانية هي نتيجة الكبت الجنسي عن طريق التصعيد، كما أن جميع المتاعب التي يلاقيها الانسان هي نتيجة لهذا الكبت، فدعا إلى إطلاق الحرية الجنسية للتوصل إلى تكوين إنسان خال من العقد النفسية والامراض العصبية والعقلية، وأعقب دارون وفرويد كثيرون في مختلف ميادين العلم والمعرفة التي تتصل بالكيان الانساني تجاوزوا في دعاواهم حذر العلم ودقته ونادوا بأن الانسان حيوان ليس إلا، في ظاهر نفسه وخفايا جسده، وأن ما يقال عن تفرد الانسان بمزايا لا يملكها الحيوان ما هي إلا مزاعم أنتجها الجهل، مع العلم أن الأحكام التي اطلقها دارون وفرويد وأمثالهما وأتباعهما لم تستند إلى علم وقد أبطلها العلم ولكن الاتجاه المادي للحضارة الاوروبية والإيحاءات الوثنية التي تستمدها من الرومان وعدائها للكنيسة وأفكارها حمل الناس على التصديق بكل هذه الدعاوى لأن الناس لا يبحثون عن الحقيقة.

إن الحضارة الأوروبية لا أخلاقية، إذ لما كانت هذه الحضارة مادية في أساسها وفي روحها المحركة لكيانها، فقد وضعت مبدأها القائل: إن كل شيء نسبي، فليست هناك فضيلة مطلقة ولا رذيلة مطلقة، ولما كانت هذه الحضارة

(١) يراجع بين الجاهلية والإسلام ص ٢٧٥

نفعية، فالفضيلة عندها فضيلة بمقدار ما تحقق من منفعة والرذيلة رذيلة بمقدار ما تحقق من أضرار.

ففي المسألة الجنسية تخلت هذه الحضارة عن اعتبار خُلق العفة في علاقة الرجل بالمرأة في المجال الجنسي فنادت بالحرية الجنسية وأباحتها متأثرة بماديتها وحيوانيتها، ولم تعد شرعية العلاقات الجنسية ذات أهمية تذكر بل تعدى الأمر إلى إباحه الشذوذ الجنسي بحماية القانون، ونتيجة لهذا الشذوذ الجنسي تدهور مركز الأسرة لدى إنسان هذه الحضارة وذابت العلاقات العاطفية والأخلاقية والانسانية في الأسرة وفقدت الأسرة معناها الانساني النبيل وقدسيتها.

وفي مجال المجتمع - نتيجة للمادية النفعية - مارس الأقوياء في السلطان المستمد من قوة المال الاستغلال الشنيع للضعفاء والفقراء في المصانع والمزارع، مما اضطر هؤلاء إلى مقاومته بالثورة الناتجة عن الحقد والبغضاء، وغدا الحقد عندهم خلقاً يدعى إليه ويبشر به، ويتعامل الناس في المجتمع الواحد في القومية الواحدة على أساس أنه الحقد الطبقي.

وفي العالم عامل إنسان هذه الحضارة الانسان الآخر باعتباره شيئاً منتجاً - كما ذكرنا آنفاً - وليس باعتباره إنساناً ذا حقوق وكرامة، بل لقد عمل إنسان هذه الحضارة على جعل الانسان الآخر في أحط درجات الوعي ليبقى تحت سلطانه آلةً منتجة لا غير، وليحول دون اكتسابه أية قدرة على تحسين وضعه الخاص.

ولعل من أكثر البينات وضوحاً على اللاأخلاقية للانسان الأوروبي في تعامله مع الانسان الآخر وأنه يعامله كشيء منتج هو ما فعلته القيادات في أوروبا وأمريكا عشية الحرب العالمية الثانية حيث أتلفت كميات هائلة من المواد الغذائية مع وجود مئات الملايين من البشر خارج أمريكا الشمالية وأوروبا بحاجة إليها، وإنما لم تعطها شيئاً لأنها لو تستطيع الشراء فلا يكون التعامل معها مربحاً، إن إنسان هذه الحضارة لا ينظر الى الناس الآخرين كبشر، وإنما كمصادر للربح، وحيث لم يكونوا قادرين على توفير الربح له يكونون غير قادرين على الشراء، فلم يبق مجال للتعامل معهم على صعيد إنساني باعطائهم ما هم بحاجة إليه، لقد تحول الطعام إلى رماد وبقي مئات الملايين من الجياع لأنهم غير قادرين على الشراء بسبب عجزهم عن أن يحولوا فائض الطعام الى نقود أو مواد خام.

وحين استطاعت شعوب الانسان الآخر أن تقف على قدميها اخترع الانسان الأوروبي ما يسمى بالاستعمار الجديد للتعامل مع الآخرين، فوضع قيوداً على

نموها حين تحكم في أسعار صادراتها من المواد الخام وفرض عليها أسلوباً جديداً في التعامل التجاري ضد مصالحها. إنه يريد أن يصنع مع الآخرين ما كان يصنعه الصينيون مع فتياتهم حين كانوا يضعون أقدامهن في أحذية من حديد لتبقى صغيرة رشيقة، فيريد الاستعمار أن يحدّ من حجم نمو الركائز الاقتصادية لهذه الشعوب ولكن لا لتكون صغيرة رشيقة، بل لتكون ضعيفة لا تقوى على حمل الدولة المستقلة فتنهار وتعود إلى حظيرة الاستعمار بصيغة أخرى. ولقد أصاب المسلمين من إنسان الحضارة الأوروبية أعظم شر حدث في التاريخ البشري على الاطلاق. ليس فقط في المظهر الاستعماري فهذا شيء ابتلي به غير المسلمين ولكن باقتلاعه شعباً من أرضه هو الشعب الفلسطيني وجمع أشتاتٍ من الناس اللقطاء من شتى الأقطار والأمصار يزعمون أنهم شعب واحد، ثم اعترف لهم بدعواهم وهو يعلم كذبها وأنكر وجود الشعب الفلسطيني وهو يعلم صدقه وأدخل القلق والعذاب على العالم العربي والاسلامي بأجمعه.

بل لقد ظهرت هذه اللاأخلاقية في تعامل إنسان الحضارة الأوروبية مع الطبيعة، لقد استغل الطبيعة بروح فجة، فكاد يستنفد بعض كنوزها ثم لوّثها بمنتجات رخائه وترفه وألاعيبه المدمرة فساق الانسانية كلها إلى أن تعيش على حافة التلوّث في الماء والهواء والتربة.

فروح العدوان نتيجة للنظرة النفعية المادية إلى الحياة، والنظرة الحيوانية إلى الانسان واللاأخلاقية التي شاعت في الحضارة الأوروبية روح التعصب والعدوان، وبرر تعصبه وعدوانه على الآخرين بما يسمى قانون تنازع البقاء وبقاء الأصلح.

وقد قام الانسان الغربي معتمداً على مذهب داروين في علم الاحياء القائم على مبدأ تنازع البقاء وبقاء الأصلح معللاً بأن الحيوانات المنقرضة لم تكن صالحة للبقاء نتيجة لعدم تكيفها مع المحيط أو لعجزها عن إيجاد بدائل لمصادر غذائها التي نفدت في وقت ما وفي مكان ما أو لفقدانها القدرة الجسدية على تحمل المناخ وإلى غير ذلك. وقد أكد السير فرنسيس كالتن أحد علماء الاجتماع النظرية الداروينية وأن عوامل البقاء والتقدم واحدة في عالم الحيوان والانسان.

وهكذا ينتقل هذا المبدأ من عالم الحيوان إلى عالم الانسان ويوجد الانسان الغربي مبررات لشخصيته المادية الحيوانية اللاأخلاقية، وقد عبرت روح التعصب والعدوان عن نفسها في سلوكه واستغلاله الطبقي، وصراع الطبقات والثورات العمالية والفلاحية في داخل أوروبا وأميركا في الحروب الاستعمارية بين شعوب إنسان هذه الحضارة التي نشبت بينها بسبب التنافس الاستعماري.

في داخل كل مجتمع من مجتمعات هذه الحضارة وجد الانسان القوي والطبقات القوية والانسان الضعيف فمارس الأقوياء التميز الطبقي، وهذا التقسيم الطبقي كان موجوداً منذ العهد اليوناني، إلا أنه في العصر الحديث كان ذا تفاعلات مرعبة، حيث لم تقتصر مآسيه على الشعوب التي تمارسه وإنما تجاوزتها إلى فئات الشعوب الضعيفة الأخرى.

فالعصر اليوناني قسم المجتمع إلى طبقة الفلاسفة ثم المحاربين ثم العبيد.

والعصر الروماني قسم المجتمع إلى طبقة المحاربين ثم العلماء والمفكرين والأغنياء ثم العبيد.

والعصور الوسطى قسمت المجتمع إلى طبقة رجال الدين ثم أمراء الاقطاع والنبلاء ثم الجيش ثم أصحاب المهن الحرة والزرّاع والخدم.

والرأسمالية قسمت المجتمع الى طبقة أصحاب الأموال والبرجوازية ثم العمال والمزارعين. وهكذا، فنزعة تقسيم المجتمع إلى طبقات مختلفة متفاوتة في الحقوق والواجبات نزعة أصيلة في شخصية إنسان أوروبا، وقد تسبب هذا التقسيم الطبقي للمجتمع بحدوث مآس متصلة لمجموعات من الناس في عصور التاريخ ولكن مآسي هذا التقسيم في هذا العصر لاتشبه الماضي، لأن وسائل التسلط والاستغلال لا يقاس بها ما سبقها. أضف إلى ذلك أن التسلط في هذا العصر موروث على أساس أنه عمل أخلاقي، وقد كان رد الفعل الثورات للتخفيف من الطبقية واتخذت من قانون بقاء الأصلح مبرراً لها واتخذ منه مبرراً لتفوق عنصرية الانسان الأبيض على الجنس البشري واتخذ أنصار فكرته من مفكرين وفلاسفة وأدباء وبدأت حملته الاستعمارية منذ القرن الثامن عشر بأبشع صور الاستعمار، وأنشأ حربين عالميتين، أضف إلى ذلك الحروب الصغيرة في أغلب أقطار العالم. وبمقدار ما كان للانسان الغربي من حقوق وواجبات فللانسان المستعمَر الاحتقار والامتهان. ولكن إنسان هذه الحضارة لم يبق بمعزل عن هذا التشويه، لقد انعكس هذا التشويه الرهيب على حياته وبدأت نذر الشر تظهر لانسان الحضارة الحديثة[1].

---

(١) يراجع بين الجاهلية والإسلام ص ٢٥٧ - ٢٩٦

المادية الماركسية
المادية الرأسمالية
الاسلام
وظيفة الدين ماهي ؟

المادّية الماركسيَّة

الماركسية مبدأ مادي هدام يرفض الإيمان بالله، وكل ما يترتب على الإيمان بالله تعالى من الاعتراف بالنبوة والوحي واليوم الآخر، ومن ثم يرفض الاعتراف بالدين جملة وتفصيلاً. والماركسية تحاربه سرّاً وعلانية، وتعتبره خصماً لدوداً، وعليها أن تحاربه وتقضي عليه في ظاهر الإنسان وباطنه، لتخليص الإنسان أفراداً وجماعات ومؤسسات من تخديره للشعوب البشرية ولتحل هي محله، فتفلسف الحياة والكون لإسعاد الإنسان السعادة التي تُوهِمه بها.

والماركسية ترى أن المادة أصل الوجود وأن الكون وما حوله مادة فقط، وأن جميع الأشياء مصدرها يكون عن طريق تطور المادة، ولا يوجد وراء هذا الوجود (الكون المادي) شيء مطلقاً، وأن هذا الكون أزلي قديم لم يوجده موجد.

ولذا قال ماركس «الدين أفيون الشعوب» أي الذي يخدرها ويمنعها من العمل، لأن الماركسيين ينكرون كون الأشياء مخلوقة لخالق، أي ينكرون الناحية الروحية في الأشياء ويعتبرون الاعتراف بوجود خالق لها خطراً على العمل والحياة، ولا وجود عندهم لشيء سوى المادة. وهم يعتبرون أن الفكر انعكاس على الدماغ واهتزازات في ذرات المخ والجهاز العصبي كإفرازات المعدة للطعام، وليس للعقل عندهم عين ولا أثر وهم قد خلطوا بين العقل وموضع أعمال العقل، فان العقل شيء وموضع عمله شيء آخر، وإنما عرف العقل بآثاره كما عرفت الروح بآثارها، وإلا فمن يقدر أن يعرف كيفَ وكم الروح والعقل؟.

والمادة عند الماركسيين وأتباعهم أصل الفكر وأصل كل شيء، ومن تطورها

توجد الأشياء، لأن المادة عندهم أصل الأشياء والكون كله ومصدر إحساسه، وعلى هذا فهم ينكرون ما قبل الحياة وما بعدها، ولا يعترفون إلا بهذه الحياة الدنيا فقط.

فالماركسية تنكر الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر، وتنكر الروح والروحانيات والعقل والعقلانيات، فلا تؤمن إلا بما تقع عليه الحواس الخمس أو ما يكون في طريق إدراك الحواس كالمختبرات والتجارب.

والماركسية ترى أن المجتمع مجموعة عامة تتألف من البشر وعلاقاتها بالطبيعة قائمة على الخضوع خضوعاً آلياً حتماً، وهذه المجموعة كلها شيء واحد للطبيعة. فالانسان يعتبر الطبيعة جانباً من شخصيته. وهو جانب منها، وهي الجانب الذي يحمله من ذاته، ولذا لا يتطور الإنسان إلا وهو معلق بهذا الجانب من شخصيته الطبيعية لأن صلته بالطبيعة صلة الشيء بنفسه ولهذا يعتبر المجتمع مجموعة واحدة تتطور كلها سواء تطوراً واحداً، ويدور الفرد تبعاً لذلك في المجتمع الشيوعي والاشتراكي كما يدور السن في الدولاب مسلوب الحرية والاختيار الفردي فهو جزء من الجماعة ولكنه غير منظور إليه بل منظور إلى الجماعة.

ولذا لم يكن في المجتمع الماركسي حرية عقيدة الفرد، ولا حرية اقتصادية. فالعقيدة مقيدة بما تريده الدولة، والاقتصاد مقيد بما تريده الدولة.

والدولة أيضاً بعض ما يقدسه المبدأ الماركسي، وهي تعتمد الفلسفة المادية دون سواها، وتؤكد على النظام الاقتصادي من بين الأنظمة المادية التي وضعتها للحياة، ومن هنا يحاول الماركسيون والاشتراكيون تطبيق مبدأ الشيوعية على العالم في كل مكان.

والماركسية تقدم النظام عن طريق الدولة، وهي التي تنفذ النظام بقوة الجند وصرامة القانون.

وتقوم الماركسية على نظرية العامل الواحد، ويرى كارل ماركس: أن هذا العامل هو الاقتصاد، ويعني به تحصيل أجر أكبر بعمل أقل، ويفسر به جميع الظواهر الاجتماعية والفردية وأنماط السلوك وأحداث التاريخ وتخطيط الاشتراكية الشيوعية حسب هذه النظرية.

وتقوم النظرية الماركسية أيضاً على دعوى التناقض الطبقي في المجتمع الرأسمالي القائم بين العامل وصاحب العمل، بتقريب أن العامل في المجتمع الرأسمالي يقدم جهداً أكبر ويعطى أجراً أقل. وهنا تتكدس الثروة عند صاحب

العمل من جهد العامل، ويصبح صاحب العمل رأسمالياً. وهنا تتناقض مصلحة العامل مع مصلحة صاحب العمل.

فجاءت الماركسية كحل لقضية العامل مع صاحب العمل، فأعطت العامل أجراً أكبر بعمل أقل، ويلزم من هذا إعطاء العامل ما لا يستحق من الأجر من صاحب العمل، وهذا إضرار بصاحب العمل، ويلزم أيضاً معاونة العامل على البطالة والكسل والخمول وعدم دفعه وتشجيعه وإهمال مواهبه وكفاءاته. ويلزم كذلك إماتة المواهب والكفاءات عند ذوي المواهب والكفاءات إذ من الواضح أن من يأخذ أجراً أكثر مما يقدم من العمل برعاية القانون وحمايته سوف يكون مدفوعاً إلى قلة الانتاج وعدم تقدمه وازدهاره، كما وأن هذا النظام سوف يكون داعياً لتقاعس أصحاب الكفاءات والمواهب عن العمل وبذل الجهد والطاقة وما في وسعهم لأنهم يعلمون أن الحكم والقانون يعطي من لا يستحق أكثر من الأجر ويساويه بمن يستحق من ذوي الكفاءات والمواهب فيتقاعس أصحاب الكفاءات والمواهب عن إعمال مواهبهم وبذل جهدهم وطاقاتهم.

وهذا ما حصل للمجتمع الشيوعي في روسيا الشيوعية بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ فتأخر فيها الانتاج الزراعي والصناعي واحتاجت إلى الغرب وأميركا ولا تزال محتاجة. فتراجعت عن تطبيق ماركسيتها تراجعاً مرحلياً - كما يسمى - وفاوتت في الأجر بين العمال وأصحاب الكفاءات، وأخذت تساعد على الرأسمالية الصغيرة والبرجوازية المحدودة من أجل التشجيع على العمل والصناعة وبعث الحياة الزراعية والصناعية بعثاً قوياً من جديد.

أما الاسلام فإن له طريقته المثلى، وهي طريقة الوسط وهو الكمال كله. حيث يعطي العامل أجره كاملاً غير منقوص، فلا يأخذ من أجره شيئاً، ولا يعطيه من جهد الآخرين فيُدخل الحيف والغبن عليهم. نعم إذا كان أجر العامل على عمله لا يكفيه لمعاشه فإن الدولة الإسلامية ملزمة بتقديم ما ينقصه من بيت مال المسلمين.

المادِيَّة الرّأسـمالِيّة

الرأسمالية ذات مظهر براق خداع رواغ. تغري الناظر البسيط السطحي الساذج إليها، فيحسب أن للدين فيها مكاناً، وهي منه خلاء وخواء، إذ ان الانسان

إذا تجاوز السطح إلى الأعماق، سرعان ما يتكشف له أن الرأسمالية كالماركسية لا تؤمن بالله ولا بالنبوة ولا بالوحي ولا باليوم الآخر، وهي تحاربه في فكره وفي رجاله، وفي مؤسساته، حين يقف على قدميه من خلال هذه المؤسسات وبعض رجال الدين أمام عدوانها، ونهبها للشعوب المستضعفة، وتسلطها السياسي والاستعماري والاقتصادي، كما حدث كثيراً في العصر الحديث في أوروبا وفي أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا فواضح وغير خفي، وإنما الخلاف بينهما في المظهر وفي الجوهر وفي الأسلوب والوسيلة لا في الهدف والغاية، فالحق أن الرأسمالية كالماركسية لا تختلف عنها في شيء والفارق بينهما: أن الماركسية نظام مادي فلسفي يدعي لنفسه الشمول، وهو ينفي ما عداه وينكر ما سواه من العقيدة بالله وكل ما يتفرع عليها من النبوة والوحي والشريعة والقيم الأخلاقية المستمدة من الوحي.

والرأسمالية ليست نظاماً فلسفياً، وإنما هي طريقة حياة مادية، لكنها ليست طريقة سطحية ساذجة بل هي قائمة على معطيات فكرية لفلسفات مختلفة، أدت جميعها إلى تكوين نظرة مادية عن الكون والحياة والانسان، وغدت نظاماً ومنهجاً مادياً عن الكون والحياة والانسان، وأخلاقاً مستمدة من هذه الفلسفات المادية، وذلك على أنقاض الفكر الديني المسيحي الذي قضت عليه الفلسفات التي رفضت معتقدات الكنيسة ونظامها وأخلاقها.

والرأسمالية، رغم كونها طريقة حياة مادية، تقوم على فلسفات وأفكار مادية أبقت على الكنيسة بعد أن جردتها من سلطانها الزمني وعزلتها عن الحكم، غير أنها لم تبق عليها باعتبارها مؤسسة فاعلة في الحياة، بل أبقت عليها كمؤسسة تستغلها للأمور التالية:

١ - لاعتبارها مؤسسة لا تزال فئة من الناس تستهوي عقائدها وطقوسها، وهذا أمر لا يضر الرأسمالية بشيء ما دامت الكنيسة لا تقحم نفسها في الشؤون التي تقوم عليها الحياة الرأسمالية المادية، ولا تعطل أي نشاط من نشاطاتها.

٢ - ان مفكري الرأسمالية في السياسة والاجتماع والاقتصاد، رأوا أن المؤسسة الدينية ليست عديمة الفائدة في تنفيذ الخطط التي وضعتها الدوائر الرأسمالية الاستعمارية عن طريق الارساليات التبشيرية الكنسية باسم التبشير الديني للتغطية والتمويه لاحتلال العالم القديم والعالم الجديد في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

٣ - ان مفكري الرأسمالية رأوا أن الكنيسة ليست عديمة الفائدة في الصراع الذي تخوضه القوى الرأسمالية مع الطبقة العاملة.

٤ ـ ان مفكري الرأسمالية راوا أن الكنيسة ليست عديمة الفائدة في الصراع الايديولوجي (الفكري) ذي الأهداف السياسية الاستعمارية والسيطرة الاقتصادية الاستقلالية والاحتكارية بين الرأسمالية والشيوعية التي لا تقل يوماً في طموحها عن غريمتها الرأسمالية إلى احتلال العالم القديم والجديد في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية وفي كل العالم.

وإذن فقد أبقت الرأسمالية على المؤسسة الدينية الكنسية ،لا لأن الرأسمالية تؤمن بالله واليوم الآخر، وتؤمن بالأديان والشرائع السماوية والقيم الدينية، فهي ـ باعتبارها طريقة حياة قائمة على فلسفة مادية ـ لا تعنى بهذه الأمور مطلقاً، قد يكون في المجتمعات الرأسمالية مؤمنون وقد يكون فيها ملحدون، فهي تتسع لهؤلاء وهؤلاء، وهذا لا يعني أنها مبنية على الإيمان الديني بحال من الأحوال، وإنما أبقت على المؤسسات الدينية الكنسية لأنها:

أولاً ـ ليس لها موقف فلسفي نظري ينفي ما يخالفه ويضاده من أفكار ومؤسسات من الجانب النظري والفكري، وإنما هي من الجانب العملي تنفي ما عداها وتحارب ما سواها من الأديان فهي من هذه الناحية كالماركسية تماماً في محاربتها للدين ورجاله ومؤسساته.

ثانياً فكرت ـ وهي المنساقة بفكرة الربح ـ أن المؤسسات الدينية الكنسية يمكن أن تكون ذات فائدة كبرى، في عمليات احتلال العالم واستعماره، وفي الصراع الطبقي، وفي الصراع الايديولوجي (الفكري) مع الماركسية في السباق بينهما لاحتلال العالم واستعماره.

فالرأسمالية تحالف الدين حتى تستطيع ترويض رجاله ومؤسساته لتغطية مخططاتها العدوانية في استعمار الشعوب ونهب خيراتها وربطها بالفلك السياسي والرأسمالي الذي يجعلها أسيرة مواقف الرأسمالية في السياسة العالمية ومؤسساتها الاستغلالية والاحتكارية.

والماركسية رغم عدائها للدين فكراً وعملاً، ورغم موقفها العدائي منه، فلا مانع لديها من مهادنة الدين ورجاله ومؤسساته:

١ ـ حين تكتشف حاجتها إلى الدين ورجاله ومؤسساته في توجيهاتها السياسية وصراعها.

٢ ـ وحين ترى أن الدين يحقق لها فائدة عملية، كما حدث في قيادات الاتحاد السوفياتي أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها في مناسبات كثيرة جداً.

إذن، فالتفاوت في الموقف من الدين بين الماركسية والرأسمالية ليس ناشئاً من خلاف نظري مبدئي حول الدين، فكلاهما من الناحية النظرية المبدئية في موقع واحد بالنسبة إلى الدين، فهما لا يعترفان به ولا يأخذان بتعاليمه وتوجيهاته في سياستهما الداخلية والخارجية ومناهجهما الاجتماعية والتعليمية والثقافية والاقتصادية.

التفاوت بين الماركسية والرأسمالية

بالنسبة إلى الدين هو في الموقف منه من الناحية العملية: فالماركسية تنفيه وتحاربه فكراً وعملاً، لأنها نظام فلسفي مادي يفلسف الكون والحياة والإنسان، ويفترض فيه ـ كأي نظام فلسفي ـ أن ينفي ما عداه ويبطل ما سواه بتفسيره للكون والحياة والإنسان بطريقة أخرى مضادة للشيوعية. والرأسمالية باعتبارها طريقة حياة مادية تنفي الدين فكراً وعملاً وتحارب تدخله في شؤون الحياة السياسية، لأنها قائمة على نظرة مادية إلى الكون والحياة والانسان.

فالرأسمالية كالماركسية لاتختلف عنها في النتيجة ونهاية الأمر في حربها للدين ورجاله ومؤسساته، رغم المظاهر البراقة والخداعة التي قد تنطلي على النظرة السطحية الساذجة التي لا تتعدى السطح الى الاعماق.

فالرأسمالية تقوم على أساس فصل الدين عن الحياة وعن الدولة. وفصل الدين عن الحياة معناه: أن الدين صلة بين الفرد وخالقه فقط وهذه الفكرة هي قوام عقيدته وقيادته الفكرية فالانسان هو الذي يضع نظامه في الحياة بنفسه، فكان لا بد من إعطائه الحريات الأربع:

١ ـ حرية العقيدة.
٢ ـ حرية الرأي.
٣ ـ حرية الملكية.
٤ ـ الحرية الشخصية.

والرأسماليون لا يريدون أن يبحثوا: هل هناك خالق أم لا؟ وإنما يبحثون أنه لا دخل للخالق في الحياة اعترف بوجوده أم أنكر وجوده.

ولذلك يستوي عندهم المعترف بوجود الخالق والمنكر له، وعقيدتهم هي فصل الدين عن الحياة.

وقد نشأ عن حرية الملكية (النظام الاقتصادي) الرأسمالية وهي أميز ما في هذا المبدأ، لذلك أطلق عليه المبدأ الرأسمالي من باب تسمية الشيء بأبرز ما فيه وأظهر أفراده وأبرز ما نتج عن حرية العقيدة فصل الدين عن الدولة.

وأما ديمقراطية هذا المذهب الرأسمالي فهي نشأت من جهة الإنسان، فهو الذي يصنع نظامه بنفسه لنفسه ويكون الحكم فيه للأكثرية. ولذلك كان الشعب هو مصدر التشريع والدولة هي السلطة المنفذة من قبل الشعب.

فالشعب هو مصدر التشريع، وهو الذي يصنع الحكام من قبله كمستأجرين ليحكموا بالنظام الذي اختاره لنفسه، وهو الذي ينزع هذا الحكم منهم متى أراد ويصنع النظام الذي يريده لنفسه، والحكم بنظر الديمقراطية الرأسمالية هو عقد أجارة بين الشعب والحاكم ليحكم بما اختاره الشعب لنفسه من نظام.

والديمقراطية، وإن كانت من المبدأ ولكنها ليست هي أبرز من الاقتصاد بدليل أن النظام الرأسمالي في الغرب يؤثر على الحاكم ويجعله خاضعاً لأصحاب رؤوس الأموال والثروات حتى يكاد أن يكون الرأسماليون وأصحاب الثروات هم الحكام الحقيقيون في البلاد التي تعتنق النظام الرأسمالي وتطبقه أضف إلى ذلك أن الديمقراطية ليست مختصة بهذا المبدأ كما هو معروف.

والرأسمالية ترى أن الدولة تشرف على الحريات، فاذا اعتدى أحد على حرية غيره منعت هذا الاعتداء، وأما إذا استغله وأخذ جميع ما يملك ـ ولكن برضاه ـ كالمقامرة والمخامرة وغيرها ـ فلا يكون بنظرها اعتداءً على الحريات، وعليه فلا تتدخل الدولة بذلك.

فالدولة موجودة لضمان الحريات من جهة خاصة دون بقية الجهات. والرأسمالية مبدأ فردي، يرى أن المجتمع مكون من افراد، ولا ينظر إلى

المجتمع إلا نظرة ثانوية، ويخص الفرد بنظرته الأولية، فالفرد له الأولوية بالمذهب الرأسمالي، ولذلك يجب أن تضمن الحريات للفرد، ولضمان الحرية له يعمل المجتمع.

ولذا كانت حرية العقيدة بعض ما تقدسه، وكانت الحرية الاقتصادية مقدسة أيضاً، ومن هنا كانت السيادة للأفراد لا للدولة.

والمبدأ الرأسمالي يحمل عقيدة فكرية، هي فصل الدين عن الحياة، وعلى أساسها يحكم بأنظمته ويدعو لها ويحاول أن يطبقها في كل مكان.

الإســـلام

الإسلام يرى أن وراء الكون والمادة والحياة والانسان خالقاً هو الله سبحانه، ولذا كان أساس الاسلام الدعوة إلى الاعتقاد بوجود الله تعالى، وهذه العقيدة هي التي أوجدت فيها الناحية الروحية، وكون الأشياء بأجمعها مخلوقة لخالق هو الله تعالى. ومن هنا كانت الروحية هي إدراك الإنسان لصلته بالله تعالى وصلة الكون بوصفه مخلوقاً لله تعالى هي الناحية الروحية في الإنسان.

فالاسلام يرى أن لهذا العالم مبدأً ومعاداً، فالمبدأ هو الله الخالق تبارك وتعالى والمعاد هو يوم القيامة وهو يوم العرض والحشر والنعيم والجحيم.

فالإسلام يرى أن الله هو الخالق للأشياء كافة، وأنه أرسل الرسل وبعث الأنبياء بدينه القويم وشرائعه الغراء ليعرّفوا هذا الإنسان ما يجب عليه، وما يقربه من خالقه ويحرز له رضاءه الذي هو أصل كل سعادة في حياته الدنيا، والأخرى، وليعرّفوه بأوامر الله الخيِّرة فيعمل بها، وبنواهيه ويحذروه من ارتكابها والوقوع في مفاسدها، وأنه إذا خالفها استحق العقاب إن عاجلاً أو آجلاً إذا لم يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

ولذلك كانت عقيدة المسلم تتكون من: الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر، والاعتقاد بنبوَّة محمد (ص) وأنه خاتم النبيين وأن القرآن الكريم أنزله عليه رب العالمين، والاعتقاد بالجنة والنار، والاعتقاد بأن الإمامة والخلافة بعد النبي (ص) بالنص من الله ورسوله على من يخلفه ويقوم بالأمر بعده لئلا تخلو الأرض من حجة الله ليلجأ إليه العباد في كل ما يعتريهم

ويعرض لهم من مشاكل الدين والدنيا ولذا ورد : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية .

فالانسان في هذه الحياة الدنيا مقيد بأوامر الله تعالى ونواهيه لتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي وهذه هي صلة الحياة بماقبلها بالخالق عزَّ وجل، وهو مطالب بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي وهي صلة الحياة بما بعدها . ولذا من الواجب على كل مسلم أن يدرك صلته بالله تعالى حين القيام بها فيسيّر أعماله بأوامر الله ونواهيه معتقداً بهذه الصلة ، وهذا هو معنى مزج المادة بالروح .

والغاية من اتباع الإنسان أوامر الله ونواهيه هي رضوان الله تعالى ، ولا تحصل هذه الغاية إلا بالاعتقاد بالله وصلة المخلوق بخالقه ويترتب على هذا الاعتقاد وهذه الصلة العيش في ظلال الإيمان في الدنيا وما في ذلك من راحة واطمئنان للنفس المؤمنة والفوز بالنعيم في الآخرة .

والأهداف العليا لصيانة المجتمع في الدين الإسلامي كالمحافظة على العقل والنفوس والأعراض والأموال وكرامة الإنسان وأمن الدولة ليست هي من وضع الإنسان بل هي من وضع خالق الانسان ، وهي ثابتة لا تتغير ولا تتطور بتغير وتطور الإنسان . نعم ربما تتبدل الأحكام وتتغير بتبدل موضوعاتها فتتغير تبعاً لما يجد لها من عناوين قانونية تلحقها بتغير موضوعاتها .

وقد أنزل الله الدين وبعث به سيد المرسلين وأنزل عليه القرآن الكريم وقد جعله قانوناً عاماً إلى يوم الدين لتعمل به الأمة .

ويرى الإسلام أن النظام يجب أن ينفذه كل مسلم مقتدر على تنفيذه بدافع تقوى الله تعالى والدولة تنفذ النظام كله بقوة السلطة وعدالة القائد الأعلى في الإسلام .

فوضَع الحدود والقصاص والديات ليقوم المسلم بالمحافظة عليها وتطبيقها ، وتقوم الدولة بتنفيذ ذلك والقيام بهذه الأوامر والنواهي ، فتجعل المسلم يعيش في طمأنينة فلا يخاف الجور والغبن والحيف ، بل يعيش في ظلال جو الإسلام العادل وفي ضمن إنصاف أحكام شرعه المبين .

والسعادة في الإسلام ليست باتباع الجسد وإعطائه متعه فقط ، بل هي إرضاء الله تعالى وإحكام الصلة بين العبد وخالقه .

والحاجات العضوية والغرائز البدنية قد نظمها الإسلام تنظيماً متناسقاً يضمن

جميع جوعاتها من غير إفراط ولا تفريط، لا بإشباع بعضها على حساب بعض، ولا بكبت بعضها وإطلاق بعض، بل نسقها جميعاً بنظام دقيق، فشرع للغريزة الجنسية الزواج وشرع لغريزة الجوع الأكل والشرب الحلال وجعل من حق الإنسان أن يكون له كنٌّ يكنّ إليه ويرتاح إليه إذا أوى من عمله وسفره.

وقد حال الإسلام بين الانسان وبين الانتكاس إلى مصاف الحيوان بفوضوية غرائزه وإشباع نهمه مما هب ودب وحل وحرم.

ولضمان هذا التنظيم وليبقى المجتمع المسلم منسجماً مع الإسلام، يرى الإسلام المجتمع المسلم كلاً لا يتجزأ، ويرى الفرد جزءاً من هذا المجتمع غير منفصل عنه، ولكن كونه جزءاً من المجتمع المسلم لا يعني أن جزئيته كجزئية السن في الدولاب كما عليه الشيوعية، مسلوب الحرية والاختيار، بل يعني أنه جزء من كل كجزئية اليد من الجسم تتحرك بحرية واختيار وهي غير مفصولة عن الجسم.

والاسلام عني بالفرد بوصفه جزءاً من المجتمع السليم لا فرداً منفصلاً عنه، بحيث تؤدي هذه العناية محافظة على الجماعة بالضرورة وهؤلاء يتكون منهم المجتمع كما يتكون الجسم من الأعضاء ولذا قال رسول اللّه (ص) في حديثه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

«إن جماعة ركبوا سفينة فاقتسموها فصار لكل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له: ماذا تصنع؟
قال: هذا مكاني أصنع فيه ما أشاء.
قال (ص): «فان هم أخذوا على يده نجا ونجوا، وان تركوه هلك وهلكوا.»
وهذه النظرة للمجتمع والفرد هي التي تجعل للمجتمع مفهوماً معيناً، لأن هؤلاء الأفراد وهم أجزاء من المجتمع، لا بد أن تكون لديهم أفكار واحدة تربطهم، يعيشون بحسبها، وأن تكون لهم مشاعر واحدة يتأثرون بها ويندفعون بحسبها، وأن يكون لهم نظام واحد يعالج مشاكل حياتهم.

ومن هنا كان المجتمع مؤلفاً من الإنسان والأفكار والمشاعر والأنظمة، وأن الانسان مقيد في الحياة بهذه الأفكار والمشاعر والأنظمة، ولذلك كان المسلم مقيداً في الحياة بالإسلام وقانونه، ولا توجد له حريات مطلقة لشهواته ورغباته، بل هي حرية مطلقة نسبياً ومقيدة في ضمن حدود الشرع. ولا يوجد حرية مطلقة في العالم، بل إنما الحريات مقيدة بالنظام الذي يطبق عليها وتعيش ضمنه، فهي مطلقة نسبياً وليس مطلقاً، لأن حرية كل فرد تنتهي عندما تبتدىء حرية الآخرين.

فالعقيدة للمسلم مقيدة له بنظام الاسلام، ولذلك كان الزنا مثلاً يعد جريمة كبرى في الإسلام يعاقب عليها، فيجلد الزاني إن كان غير متزوج مئة جلدة، ويُرجم إن كان متزوجاً بدون رأفة ولا حنان، وهكذا بالنسبة للمرأة تماماً، «وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».

وكان شرب الخمر أيضاً جريمة يعاقب فاعلها، وكل اعتداء أو خروج أو تعد لحدود الله فهو جريمة يقاصص فاعلها حسب ما نص الله سبحانه من عقوبة لكل جريمة في شرعه المبين.

وكانت الناحية الاقتصادية في الإسلام مقيدة بالشرع الأقدس، وبالطرق التي أباح للفرد التملك بحسبها، وكان الخروج عن هذه القيود جريمة باختلاف نوعه وجنسه يجب القصاص عليها بحسبها، فلقد قال عز وجل: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب».

ولهذا لا بد من الدولة التي تحفظ المجتمع والفرد وتطُبق النظام على المجتمع والفرد، وكان لا بد من الحاكم العالم بجميع أحكام الشريعة، وكان لا بد أن يكون عادلاً ليؤمن منه الانحراف، ولما كانت المصالح والمفاسد قد يخفى الكثير منها على البشر، يجب بحكم العقل أن يكون الحاكم الأعلى في الدولة الأسلامية بتعيين من الله ورسوله أو الإمام الذي يقوم بعد النبي بنص النبي ليعالج الدولة والأمة بما يحفظ لها مصالحها ويمنعها من الفساد والضياع والانحراف.

وغير خفي مدى أهمية صلاحية الحاكم وفي المثل: أصلح الحاكم يصلح المحكوم. والناس على دين ملوكهم، فإن تأثير سلوك الحكام على رعاياهم شيء واضح ومن البداهة بمكان وإن الناس لا تكاد تنظر إلى الرسالة وإلى النظام الذي يطبق عليها إلا من خلال سلوك الحاكمين به والداعين له، فبمقدار ما تتمثل بهم مبادئهم ونظمهم تنقـاد لهم رعاياهم وأممهم، ولذا اشترطت الشيعة الإمامية عصمة النبي والإمام الذي يخلفه حيث إن النبي هو الحاكم الأعلى في الإسلام ومن بعده خليفته الإمام، وتتمثل هذه الإمامة الكفوءة في الأئمة الاثنَي عشر من آل الرسول (ص).

والدين الإسلامي عندما دعا إلى الإيمان بوجود الله تعالى، لا يقف عند حد الإيمان بما هو قناعة عقلية ووجدانية، فلا يكتفي الإسلام بدعوته للإيمان بالله أن يكون إيمان الإنسان إيماناً تجريدياً (نظرياً) بل يريد الإسلام من الإيمان أن يكون فكرة ينبثق عنها العمل. وأن ينسق الانسان بين فكرة إيمانه وعمله،

أي أن يكون عمله متسقاً وملائماً لفكرته الإيمانية في كل مجالاته الحياتية من أصغر الأمور إلى أكبرها.

فقضية الإيمان بالله تعالى خالقاً للكون ومدبراً له لا تقف عند الإيمان النظري القائم في النفس، بل تتعداها إلى القضايا الحياتية كلها الفكرية والعملية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكل شيء في الكون وفي الحياة وفي الإنسان.

فالايمان بوجود الله تعالى في عقيدتنا هو الايمان بوجود علاقات شاملة بين الله وبين جميع الكون وما فيه من أصغر المخلوقات كالذَّرَّة إلى أكبرها كالمجَرَّة، علاقة ربوبية تغمر الكون كله وتتغلغل في أعماقه وفي جميع ثناياه ومظاهر وجوده، ومن بين هذه العلاقات القائمة بين الخالق ومخلوقاته علاقة الانسان ذات الطابع الانساني البشري، وهي علاقة الله بالانسان عن طريق النبوة والرسالة.

وقد بعث الله تعالى النبيين وأرسل المرسلين منذ فجر الانسانية ومنذ زمن آدم عليه السلام بالدين الموحى إليهم به من عنده، والذي ينظم حياة البشر ويقودهم إلى سبل السعادة حتى ختم الله أنبياءه بخاتم النبيين ورسالاته برسالة الاسلام الكامل المستوعب الشامل لكل حاجات الانسان التشريعية والأخلاقية التي تجعل الانسان قادراً على بناء حياة طاهرة وسعيدة وكريمة قوية فعالة ذات تأثير فعال حاسم في حركة التاريخ الانساني.

وقد جعل الله تعالى حقيقة الاسلام وجوهره ومبادئه الكبرى في كتابه الكريم (القرآن) وعلى لسان رسوله الأكرم (محمد ص). فالدين الاسلامي يبين الله تعالى فيه إصلاح الانسان وهداية البشر الى الحياة السعيدة الهانئة الطيبة الرغيدة لقوله تعالى: «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين».

وقوله تعالى: «يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلال مبين»[1].

إن نداء الإيمان هذا الى الايمان بالله رباً وخالقاً ومدبراً حكيماً، وما يقضي به هذا الايمان من الايمان برسول الله واليوم الآخر وشرْع الله

(١) الأحقاف الآيتان ٣١، ٣٢.

وقيَم الله وكل ما أتى به النبيُّ من عند الله ، إن هذا النداء موجه إلى جميع الذين تلفهم الحيرة ويطوّح بهم الضياع في حياة فقدت جوهر معناها الانساني وفقد الانسان فيها بُعده الداخلي ، فشعر بالفراغ لأنه يعيش فراغ الذات والضياع والتيه الذي جعله يفزع من الخلوة إلى نفسه لأنه يشعر بالوحدة والوحشة واللامعنى ، فيحمله ذلك على الفرار من مواجهة ذاته باغراق حواسه ومشاعره في صخب العالم الخارجي ، وهكذا يبقى هذا الانسان المعاصر يعيش حياة بائسة من الاستغراق في العمل إلى الاستغراق في اللهو إلى الاستغراق في الشهوات إلى الاستغراق في كل ما يجعل الإنسان يعيش خارج ذاته طيلة نهاره إلى أن يستغرقه النوم ليستيقظ على يوم جديد يشهد فراراً جديداً من الذات[1] .

وَظيفَة الدِّين مَاهِيَ ؟

الدين عقيدة إلٓهية ينبثق عنها نظام كامل للحياة الانسانية ، يقوم السلوك الانساني ، ويرسم المناهج الصحيحة لهذا السلوك ، ويرفع الكائن البشري من مستوى الحيوانية إلى مستوى الإنسانية العالية .

وليست وظيفة الدين أن يقدم تفسيراً تفصيلياً شاملاً عن الكون ونشأته وأطواره وعناصره وتفاعلات عناصره ، فهذه المسائل وأمثالها مجال للعلم . وكل ما يقوله الدين في هذا المجال ، أنه يرد الكون إلى علة (الله) التي هي السبب الأول للتكوين ، وكل علة في الكون تنتهي إلى العلة الأولى : (الله تبارك اسمه) .

موقف الدين الاسلامي من العلم وكشوفه .

التشجيع على البحث والمعرفة وإزالة المعوّقات التي تعترض طريقه ، فحرّم السحر والشعوذة والكهانة ، والقيافة وأمثالها .

والتأييد بالنسبة لكشوف العلم وانتصاراته وذلك في القضايا اليقينية منها فقط ، أما الظنون والفرضيات فلا قيمة لها ولا تنال من الدين احتراماً « إن الظن

---

(١) تراجع البحوث المتقدمة في : الماركسية والرأسمالية والإسلام . فلسفتنا ص ١١ - ٥٢ ط . أولى عويدات ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ١٣ - ١٧

لا يُغني من الحق شيئاً». إن الفرضية مجرد مشروع وليست حقيقة نهائية تؤخذ مأخذ القبول المطلق، لأن المنهج العلمي لا يجيز الايمان إلا بما ثبت باليقين.

إن النصوص الدينية التي تكون مورداً للدراسة والبحث والفحص والتعمق فيها هي نصوص الدين، أي ما يتناول العقيدة والشريعة لبيان أحكامها وإيضاح تعاليمها، وليس لأجل اكتشاف أسرار الطبيعة المادية. إن المنهج في استكشاف أسرار الطبيعة المادية هو التجربة وليس دراسة النصوص.

إن علماء المسلمين الذين نبغوا في جميع العلوم الطبيعية في المشرق والمغرب: كابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حيان ونصير الدين الطوسي والخوارزمي وابن خلدون وغيرهم كثير، هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء المسلمين الذين شيدت أوروبا نهضتها على نتائج بحوثهم العلمية، قد توصل هؤلاء العلماء إلى نتائج بحوثهم العلمية لا بدراسة النصوص الدينية من القرآن والسنة وإنما باتّباع المنهج العلمي في البحث والتجربة.

إن دور الدين في تكوين علم هؤلاء العلماء هو أنه دلهم وأرشدهم على أهمية هذا النوع من البحث العلمي وكوّن في عقولهم المنهج العلمي التجريبي عن طريق الأمر بالبحث والتأمل في ظواهر الطبيعة وأسرار الانسان، وقد ورد الحث على ذلك في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

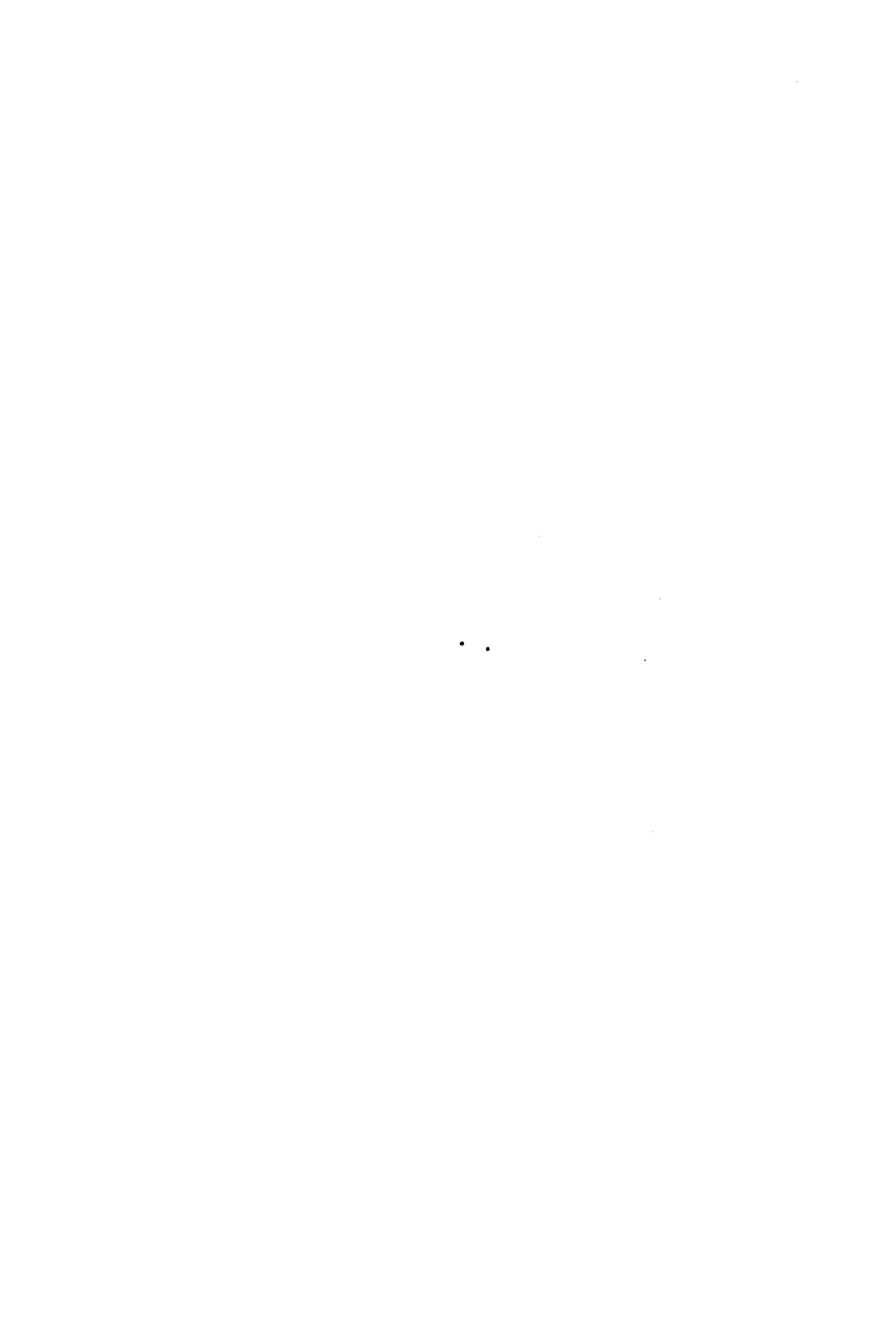
ولقد برع هؤلاء العلماء في الطب والفلك والاجتماع والجغرافية والكيميا والفيزياء وغير ذلك، من فنون العلم وأبواب المعرفة، وكانوا مع ذلك مسلمين صالحين محافظين على إسلامهم وملتزمين به. يتلقى المسلمون، دولة وعلماء دين ومسلمين نتائج بحوثهم العلمية بالاحترام والتقدير والإعجاب، بل وينفقون الأموال الكثيرة عليهم وعلى بحوثهم، وعلى تهيئة وتسهيل وسائل بحوثهم العلمية من مكتبات ومدارس ومراصد ومستشفيات وغيرها.

وكما أن الدين الاسلامي حثّ على العلم وشجع فقد كرَّم العلماء ووقرهم وأجلهم وأمر باحترامهم وتقديرهم، ولم يُعهد أن أهين عالم واضطهد لكشوفه العلمية، كما حدث لعلماء النهضة الحديثة من الاضطهاد والقتل كغاليللو وأمثاله، وإذا كان حدث لبعض العلماء من المضايقات من قبل بعض الحكام المنحرفين فهؤلاء لا يمثلون الاسلام والمسلمين بحال من الأحوال وهذا واضح من دين الإسلام وديدن المسلمين في تعاملهم بالاجلال للعلماء[١].

---

(١) يراجع التطور والدين للمؤلف ص ٦٣ - ٧١ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٦٢ - ٦٣

فِكرَة عَن نَظريَّة التَطوّر لدَاروين



« إن الأنواع الحية بما فيها الانسان تعود إلى خلية وحيدة حية ، وقد حدث في داخل هذه الخلية تغيُّرٌ نوعيّ بشكل طفرات سببت انقسامها إلى أنواع بعد أن كانت نوعاً واحداً ، وهذه الطفرات التي حدثت داخل هذه الخلية لم تقع بتوجيه وقصد ، وإنما وقعت صدفة ، بسبب الصراع ، وفقاً لقانون تنازع البقاء - بين الأنواع التي حظيت بكفاءات نوعية جديدة بتزويد الطفرة صدفة لها ، وبين تلك الأنواع التي لم تحظ بذلك . وبحكم قانون بقاء الأصلح يقضي على الأنواع الضعيفة الأنواعُ القويةُ المزودةُ بالطفرة صدفة وهذه التغيرات للأنواع المكتسبة بالطفرات صدفة يفترض لها أنها قابلة للتوريث إلى الأعقاب والخلق ، وهكذا يوجد جيل جديد ورث الخصائص النوعية المميزة عن أسلافه ، وهكذا تستمر الطفرات والقفزات في الحدوث صدفة ، ويستمر قانون الوراثة في عمله ، ويستمر قانون تنازع البقاء بين الأنواع الضعيفة والأنواع القوية وأخيراً يتغلب القوي على الضعيف وينتصر وتكون هي الاصلح للبقاء في عملها وتستمر التطورات وهكذا دواليك حتى ينتهي الأمر ألى الأنواع الحية السائدة اليوم ، ومن بين هذه الأنواع الحية الانسان الذي هو قمة هذه العملية التطورية للأحياء .

هذه هي فكرة ملخصة لنظرية داروين في أفضل صورها بعد أن عرض عليها كثير من الاصطلاحات التي أضافها إليها خلفاء داروين .

وتسأل هل هي علم يقيني وقطع جازم كتساوي : ١ + ١ = ٢ ؟

الجواب كلا ، إنها في أغلبها احتمالات وأوهام وظنون وفرضيات - لا حقائق علمية - وضعت لأجل فرض إيجاد صورة عن عملية التطور لخصوص الأنواع الحية .

ونحن أولا لا نشك في وجود التطور بصورة إجمالية وبشكل عام ، وإنما الذي نمنعه ونرفضه التفاصيل التي قامت عليها النظرية الدارونية كما شرحها خلفاء

دارون، نرفض اقتصار التطور على خصوص الأنواع الحية، بل هي تشمل الجماد كما تشمل النبات والحيوان والانسان.

ونظرية التطور التي أرادها لها خلفاء دارون أثبت العلم والمناقشات التي دارت حولها، كما أثبتت جميعها عدم تماسكها، وهذه صورة من مناقشتها والرد عليها، وقد نوقشت من الطفرة وتوريث الصفات المكتسبة والعقل الذي نشأ عنه التطور.

١ ـ لماذا تحدث الطفرة (الصدفة)؟ يجيب الداروينيون: إنها تحدث صدفة وطبعا هذا التعليل غير مقنع لا عقلياً ولا علمياً، لأن الطفرة ظاهرة طبيعية لا بد لها من أسباب، فما هي أسباب الطفرة هذه؟ فجوابهم لا ندري، فيترتب على جوابهم هذا: أن تعليل التغير النوعي الذي يحدث بأنه طفرة حدثت صدفة لا يعني أكثر من الجهل بسبب التغير النوعي، وإلا فاذا كانت الصدفة وحدها كافية وافية علميّاً لتفسير التنوع الحيواني، فلماذا لا تفسر الظواهر الطبيعية الأخرى بالصدفة كذلك؟ وإذا كان التعليل بالصدفة يكفي علمياً للتنوع الحيواني، فلماذا يرفض فكرة أن السلالة البشرية الموجودة اليوم تناسلت من أبوين وجدا صدفة، ولم يتسلسلا من نوع آخر غير حيواني؟

فالحقيقة أن القول بالصدفة والتمسك بها لا يعني شيئاً أكثر من جهل السبب في حدوث التنوع الحيواني، وهكذا تختفي السمة العلمية من النظرية الداروينية لتتستر بالألفاظ الجوفاء لتخفي عجزها عن الحقيقة العلمية المقنعة.

ثم ما هي الصدفة؟ هل في الكون صدفة؟ إن للصدفة قانوناً معيناً يكشف عن استحالة وجود جُزَيء واحد من البروتين ـ والبروتين من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية ـ وهو أحد العناصر ١٠٢ التي تتركب منها المادة الحية والجامدة.

إن العالم الرياضي السويسري (تشارلزيوجين جاي) أجرى عملية حسابية للفرضية التي يمكن أن تتاح لتكوين جزيء واحد من البروتين صدفة فوجد أنها بنسبة (١) إلى (١٠) أي بنسبة رقم واحد إلى عشرة مضروباً في نفسه (١٦٠) مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به والتعبير عنه بالكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة اللازمة لحدوث هذا التفاعل لينتج جزيء واحد من البروتين صدفة أكثر مما يتسع له هذا (الكون) بملايين المرات، ويجب أن يستمر هذا التفاعل بَلايين من السنين، قدرها العالم المذكور

آنفاً، بأنها عشرة مضروبة في نفسها (٢٤٣) (٢٤٣٠) من السنين، كل هذا لإنتاج جزيء واحد من البروتين صدفة فاذا قلنا إن التنوع الحيواني في الكون ناشىء عن طريق الصدفة نصل إلى الصفر، أي أن قيمة الاحتمال أو الصدفة تساوي الصفر أي تساوي المحال الرياضي.

ومع ذلك يكابر الدارونيون ويقولون: إن التنوع الحيواني في الكون وجد صدفة.. ثم ما الدليل على أن هذه التغيرات التي يسميها الدارونيون طفرات نقلت كائناً حياً من حالة معينة الى حالة نوعية أخرى؟

الجواب: لا دليل، إنه مجرد افتراض وهمي لا غير، فلم تقدر جميع العلوم التي استعانت بها الدارونية أن تثبت بصورة علمية لا تقبل الشك حلقات الاتصال بين نوع حيواني ونوع آخر.

إن التغيرات موجودة بلا ريب، وتدل على تطور في المواهب والكفاءات، ولكن لا تدل على انتقاله من نوع إلى نوع آخر.

٢ ـ كيف حصل توريث الصفات المكتسبة بواسطة الطفرة (الصدفة) دون الصفات المكتسبة الأخرى التي أثبت العلم عدم قابليتها للتوارث، فبأي تعليل علمي مقبول نعلل هذا الافتراض الذي يشكل العمود الفقري لنظرية التطور الدارونية.

أضف إلى ذلك حكاية الطفرة (الصدفة) لقد فشل دارون وخلفاؤه في إعداد جواب علمي مقبول وكاف على هذا السؤال.

أما علم الوراثة، فقد أثبت أن مرد جميع الصفات الوراثية إلى الجينات التي تحتويها خلايا التناسل، وقد أوضح العلم أن الجينات لم تشتق من خلايا جسمية بل من (جرمبلازم) الوالدين فالأجداد.

وهكذا أثبت علم الوراثة بعد التمييز بين الخلايا الجسمية والخلايا التناسلية أن الصفات المكتسبة لا تورث.

وهكذا تنهار الدارونيـة، من هنا لتلجأ الى فرضية التنوع من طريق الطفرات، وقد عرفنا قيمة هذه الفرضية آنفاً.

وهكذا تبقى الدارونية، مجرد حكاية فرضية لم يحالفها النجاح.

٣ ـ نسأل الدارونية: لقد وصل التطور إلى قمته متمثلاً بالعقل الانساني، فكيف حدث العقل؟ وما هو العقل؟ وما هي حقيقته؟

إن العلم الحديث لا يعرف شيئاً عن طبيعة العقل، والدارونية كغيرها من الفرضيات التي طرحها الماديون عاجزة عن تقديم تفسير معقول لنشأة العقل الانساني العجيب.

هل تفرض الدارونية أن العقل تطورٌ من تطورات المادة نشأ بواسطة الطفرات (الصدفة) وتنازع البقاء وبقاء الأصلح للتوريث، والحق ان أشد مذاهب علم النفس غلواً في المادية (المذهب السلوكي) حاول الجواب وفشل بشكل واضح.

نشرت صحيفة الأهرام القاهرية في عددها الصادر يوم الأربعاء ٢ شوال ١٣٩٢ هـ ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٢ م الخبر التالي:

واشنطن في ٧ - ١ - ٧٢ وكالات الأنباء:

أعلن ريتشارد ليكي أحد علماء الأنثروبولوجيا - علم الانسان - في كينيا، أنه تم اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون، ويعد أقدم أثر من نوعه للانسان الأول، وقال العالم: إن هذا الاكتشاف يمتد في أثره مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر يمكن العثور عليه حتى الآن، وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة مع عظام لساق بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ في جبل حجري بصحراء تقع شرق بحيرة رودلفا في كينيا.

وقال العالم: إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الانسان من أجداده فيما قبل التاريخ، وكيف ومتى تم.

وقد قدم ريتشارد (وهو مدير المتحف البريطاني في كينيا) تقريراً عن اكتشافه إلى الجمعية الجغرافية في واشنطن وقال فيه: إن نظريات التطور الحالية - وعلى رأسها نظرية دارون - تفيد أن الانسان تطور من مخلوق بدائي كانت له سمات بدائية شبيهة بسمات القرود وإن أقدم أثر للانسان كمخلوق منتصب يسير على رجليه وله مخ كبير يرجع إلى نحو مليون سنة، في حين أن الاكتشاف الجديد يدل على أن المخلوق الانساني المنتصب في الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد، بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف مليون عام، وأنه يمكن على هذا الاعتبار استبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الانسان انحدر من سلالته، وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليقها:

«ان النظرية لكي تقوم على اساس أن المخلوق البدائي الأول، واسمه

العلمي (اوسترالوبيتشتكوس) ، وكان أساسا من أكَلة النباتات قد وصل الى مرحلة تطورية مسدودة ، بينما استطاع الانسان الذي استعمل اللحم في غذائه ، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية أن يبقى على قيد الحياة . »

وأكد ليكي في تقريره أنه امكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها ، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جاجم الجنس البشري المعروف حالياً إلا أنها تختلف كذلك عن جميع اشكال الجماجم التي عثر عليها للانسان الأول ، ولذلك لا تتفق مع أية نظرية حالية من تطور الانسان .

وفي ١١ - ٣ - ١٩٧٣ نشرت جريدة الأخبار القاهرية في صفحتها الثالثة تحت عنوان (انتكاسة نظرية الارتقاء) ما يأتي للاستاذ ظفر الاسلام خان - الهندي : « تعرضت نظرية الارتقاء لهزة عنيفة في أوائل الشهر الحالي حين قرر المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الأمريكية بأن تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم إلى نظرية الارتقاء الدارونيـة بأنها « نظرية افتراضية وليست حقيقية » وجاء في قرار المجلس التعليمي للولاية : « إن ما يمكن معرفته عن أصول الحياة لا يعدو أن يكون مجرد افتراض ذكي - على أكثر تقدير - وإن المجلس باستخدام تعديل على العقائد النظرية المسلّم بها إلى بيانات قابلة للتعديل وفقا للظروف » .

أوردت هذا الخبر مجلة (الايكونمست) الأسبوعية البريطانية في عددها الصادر في ١٠ مارس سنة ١٩٧٣ ، نقلنا هذين الخبرين عن الاستاذ الدكتور عبد المنعم النمر مدير البحوث الاسلامية في الازهر الشريف (« خواطر عن الدين والحياة » الطبعة الأولى ١٩٧٢ م - دار الكتاب اللبناني - بيروت لبنان ص ٢١٠ - ٢١٢)[١] .

---

(١) هذا الموضوع من كتاب مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ١٠٩ - ١١٤ .



١ ـ حركة التطور عند الماركسية .

المسألة الأولى : طبيعة الحركة .

مبدأ التناقض والشروط الثمانية .

الحركة في الماركسية .

الحركة في الواقعية الإلٓهية .

خلط الماركسية بين النقيضين والقوة والفعلية في حركة التطور .

المسألة الثانية : مجال الحركة

محاولات الماركسية الثلاث ، تعميم التطور للمادة والفكر :

□ المحاولة الأولى : أن الفكر انعكاس للواقع الموضوعي .

□ الجواب .

□ المحاولة الثانية : أن الفكر جزء من الطبيعة .

□ الجواب .

□ المحاولة الثالثة : التكامل العلمي في الأشياء دليل على الحركة الديالكتيكية في الفكر .

□ الجواب .

٢ ـ تناقضات التطور .

٣ ـ قفزات التطور .

٤ ـ الارتباط العام .

الماركسية والعلم والسياسة والقوانين الأربعة الأساسية للمادية الديالكتيكية :

١ ـ المدلول السياسي لقانون حركة التطور .
٢ ـ المدلول السياسي لقانون تناقضات التطور .
٣ ـ المدلول السياسي لقانون قفزات التطور .
٤ ـ المدلول السياسي لقانون الارتباط العام .

١ ـ حركة التطور عند الماركسية

لقد ضللت الماركسية الكثيرين من الناس ـ كما هو شأنها في كل القضايا، التضليل والتزوير ـ فاشاعت القول: بأن الكون المادي في حالة حركة دائبة ودائمة، وجعلت ذلك بأنها هي السباقة لهذا الرأي وجعلته وقفاً عليها واحتكرته ضمن آرائها المفتعلة.

ولكن هذا القول: بأن الكون المادي في حالة حركة دائمة مستمرة وجد في الفلسفة الاسلامية ـ قبل أن يكون ديالكتيك وفلسفة مادية ـ في فكر الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي ٩٧٩ هـ ـ ١٠٥٠ هـ في نظريته عن الحركة العامة والحركة الجوهرية في كتابه الأسفار. وقد برهن على أن الحركة لا تمس ظواهر الطبيعة وسطحها العرضي فحسب، بل الحركة في تلك الظواهر ليست إلا جانباً من التطور يكشف عن جانب أعمق وهو التطور في صميم الطبيعة وحركتها الجوهرية، ذلك أن الحركة السطحية في الظواهر، لما كان معناها التجدد والانقضاء، فيجب لهذا أن تكون علتها المباشرة أمراً متجدداً غير ثابت الذات أيضاً، لأن علة الثابت ثابتة، وعلة المتغير المتجدد متغيرة متجددة، فلا يمكن أن يكون السبب المباشر للحركة أمراً ثابتاً وإلا لانعدمت الحركة، وأصبحت قراراً وسكوناً.

والغريب الذي ابتدعته الماركسية في حركة التطور هو فكرة التناقض الخيالية الوهمية الباطلة، فقد اعتبرت الماركسية أن التناقض هو سبب الحركة في الطبيعة، وأن الحركة هي المظهر الذي ينتج عن الصراع بين المتناقضات فوقعت الماركسية بعملها هذا في خطأ فلسفي جسيم، ولا بد من تجريد مفهوم حركة

التطور عن فكرة التناقض لتنسجم الرؤية الفلسفية لحركة التطور مع الواقع الموضوعي لهذه الحركة في الطبيعة.

فالالٓهي والمادي متفقان على وجود الحركة في الطبيعة، وإنما يختلفان في مسألتين: الأولى طبيعة الحركة، والثانية مجال الحركة.

المسألة الأولى: طبيعة الحركة:

إن مبدأ التناقض يعتبر عنصراً أساسياً في مفهوم الحركة عند الماركسية، بينما عدم التناقض يعتبر عنصراً أساسياً في مفهوم الحركة في المفهوم الواقعي الإلٓهي، ولذا لا بد من بيان مبدأ التناقض وشروطه، قبل البدء بنقد الماركسية في هذه المسألة وإبطالها، ليكون القارىء على بينة من الأمر ووضوح مقام البحث.

التناقض:

التناقض اختلاف القضيتين، بحيث يلزم لذات الاختلاف، من صدق كل واحدة منها كذب الأخرى وبالعكس.

ويتحقق هذا، بأن تكون القضية الواحدة تتوفر فيها ثمانية شروط، وحدة موضوعها ومحمولها، مع وحدة الزمان، والمكان، ووحدة الاضافة (النسبة) ووحدة الشرط، والوحدة في الجزء وفي الكل، والوحدة في القوة (الامكانية) أو في الفعلية، أن تكون القضية الواحدة في جميع هذه الأمور الثمانية موصوفة بالوجود والعدم معاً في آن واحد، مثلاً هذه القطرة من الماء في هذا الأنبوب بجميع أجزائها حارة فعلاً بدرجة عشرة، في الدقيقة الستين من الساعة الواحدة صباحاً، وهذه القطرة من الماء بجميع أجزائها في الأنبوب وفي نفس الزمان غير حارة بالفعل بنسبة عشر درجات.

هاتان القضيتان متناقضتان، والواقعية الإلٓهية تقول: إن صدقهما مستحيل وإن كذب إحداهما ضروري، وتقول الماركسية: إن كذب إحداهما مستحيل وإن صدقهما ضروري.

الحركة في الماركسية:

قال أنجلز:

«إن الوضع يختلف كل الاختلاف، إذ ننظر إلى الكائنات وهي في حالة حركتها، في حالة تغيرها في حالة تأثيراتها المتبادلة على بعضها البعض، حيث نجد أنفسنا بدء هذه النظرة بأننا مغمورون في التناقضات، فالحركة نفسها هي

تناقض، وإن أبسط تغير ميكانيكي في المكان لا يمكن أن يحدث إلا بواسطة كينونة جسم ما، في مكان ما، في لحظة ما، وفي نفس تلك اللحظة كذلك، في غير ذلك المكان، أي كينونته وعدمها معاً في مكان واحد، في نفس اللحظة الواحدة، فتتابع هذا التناقض تتابعاً مستمراً، وحل هذا التناقض حلاً متوافقاً مع هذا التتابع، هو ما يسمى بالحركة.

هذا النص الأساسي لفكرة التناقض الماركسية تصور طبيعة الحركة في الفلسفة الماركسية، إنها نتيجة الصراع والتدافع بين النقيضين، فكل واحد منهما بحكم كونه نقيضاً يمنع الآخر من التحقق المستمر، وهذا التمانع ينتج الحركة والتغيير.

الحركة في الواقعية الإلٓهية:

الواقعية الإلٓهية ترى أن التناقض مستحيل في طبيعة الحركة، وأنه لا ينتج الحركة بل ينتج السكون والثبات كما سيتضح.

إن الحركة في الواقعية الإلٓهية هي تعاون وتفاعل مستمر بين الفعلية وبين القوة الإمكانية، والحركة تنتج من تحول إمكانية الشيء إلى وقوعه أي تحوّل قوة الشيء إلى وجود فعلي له وهي مرحلة سير الشيء وانتقاله من مرحلة الإمكان إلى المرحلة الفعلية، وليست صراعاً بين فعلين متناقضين كما تدعي الماركسية، فكل موجود يملك الى جانب الوجود المعين الذي له فعلاً إمكانية النمو والتقدم، والتغير بشكل عام، وإذا احتفظ هذا الشيء بفعليته المعينة ولم يكتسب فعلية جديدة أخرى فهو ساكن وثابت. أما حين ينتقل من فعليته الموجودة فعلاً إلى فعلية جديدة غير الفعلية التي كانت، فهو يتحرك ويكسب وجوداً أكثر قوة. إن حركة الشيء الموجود هي تحول إمكانياته القائمة المستكنة فيه إلى فعليات ظاهرة عليه.

فحركة الشيء هي انتقال مستمر متدرج من القوة إلى الفعلية، مثلاً بذرة الورد هي فعلاً بذرة جافة ذات حجم وشكل معينين، ولكنها تملك في الوقت عينه إمكانية أن تتحول عبر مراحل من النمو الى شجرة ورد زاهية اللون عابقة بالعبير والطيب، فإذا غرست وتهيأت لها ظروف النمو انتقلت من كونها بالفعل بذرة جافة إلى مرحلة فعلية جديدة هي انبثاقها عن (سمخ) لقد تحركت البذرة إلى الأمام باكتسابها الفعلية الجديدة، وهي تملك إمكانيات أخرى، فإذا تحولت

إلى نبتة خضراء فوق التربة تكون قد تحركت أيضاً باكتسابها فعلية جديدة، وهكذا تستمر في الحركة إلى أن تصل إلى غايتها وتستنفذ جميع إمكاناتها، وحينئذ تتوقف عن النمو لأنها لم يعد لديها ما تعطيه، لم تعد قادرة على إثراء وجودها بمستويات جديدة، لأنها حققت جميع إمكاناتها.

ومثال آخر، الماء، إنه يكون بارداً تماماً في درجة الصفر فهو بارد بالفعل، وفي الوقت نفسه يملك إمكانية الحرارة من أقل مستوياتها إلى أعلى مستوياتها، حيث الماء يتحول إلى غاز، فإذا عرّضنا الماء للنار تبدأ حرارته التي كانت قوة فقط، بالتحول والحركة نحو الفعلية وهكذا تكون (إمكانية) الحرارة قد تحولت إلى (فعلية) الحرارة بدرجة معينة، ولنفرضها ٥٠ درجة مثلاً، ولا تزال فيه إمكانية أن يتجاوز هذه الدرجة إلى درجة أعلى منها، فإذا بلغ درجة الغليان تكون (إمكانية) الغليان قد تحولت إلى فعلية الغليان، ولا تزال مع ذلك إمكانية أن تشتد حرارته فيتحول الى غاز.

وإذن فثمة حرارة واحدة مستمرة الوجود وتتجدد باستمرار وذلك بتحولها من مرحلة القوة والامكان إلى الفعلية والانجاز، وكلما تحققت بالفعل إحدى الامكانيات أفسحت المجال لتتحقق إمكانية أخرى أعلى منها، هذا هو المفهوم الفلسفي لحركة التطور لدى الواقعية الإلّهية

خلط الماركسية بين النقيضين والقوة والفعلية في حركة التطور.

إن حركة التطور في المفهوم الفلسفي تقوم - كما مر سابقاً - على أساس الايمان بمبدأ التناقض ووجود التناقضات بأجمعها بالفعل، ويترتب على ذلك صراع بينها بحكم كونها متناقضات ونتيجة الصراع هي الحركة، ونرى الواقعية الإلّهية في مفهومها عن تطور الحركة هي سير الشيء من مرحلة الامكان إلى مرحلة الفعلية.

لقد تورط ماركس وأتباعه في خطأ فادح نتيجة جهلهم بحقيقة التناقض، فاعتبروا أن وجود الفعلية والقوة في الشيء من باب اجتماع النقيضين، وأن تحول الشيء وتحركه من الامكانية الى الفعلية نتيجة الصراع بين هذين النقيضين، وقد عرفت أن هذا ليس من التناقض في شيء، فإن الماء ليس بارداً بدرجة الصفر بالفعل، وحارّاً بالفعل في آن واحد بدرجة ٥٠ مثلاً، وإنما هو

بارد بدرجة الصفر بالفعل، وحار بدرجة ٥٠ بالقوة، وهذه القوة تتحول الى الفعل ليس في آن وهو في اللحظة نفسها، وإنما في لحظة أخرى تتحول فيها الامكانية الى فعلية جديدة تتجاوز الفعلية السابقة عليها الى درجة أعلى من الوجود الحراري، والا فلو آمنا بمفهوم الماركسية عن الحركة وأنها صراع بين المتناقضات الفعلية بأجمعها، لأدّى بنا ذلك إلى نتيجة أخرى هي السكون والثبات المطلقين، وعدم الحركة، وبيان ذلك:

أنه إذا وجدت درجتان من الحركة بالفعل في زمن واحد فهل يتغير الشيء أو لا يتغير؟ إن أجابت الماركسية بأنه لا يتغير يلزم من ذلك الجمود والثبات، وهما ضد الحركة وإن أجابت أنه يتغير فلنا أن نسأل: من أين جاء التغيير؟ وإلى أية حالة يحصل التغير ما دامت جميع التناقضات موجودة بالفعل، ولم يكن بينها تمانع وتعارض؟ إن النتيجة هي الثبات لأنه في هذا الفرض لا توجد حالة منتظرة للشيء ؛ لأن جميع حالاته ناجزة وفعلية الوجود.

وإن اجابت بالاعتراف بالاعتراض بين المتناقضات فلا بد من الاعتراف بأنها لا يمكن إذن أن تكون بأجمعها موجودة بالفعل، ولا بد حينئذ من الرجوع إلى المفهوم الواقعي الإلّهي عن الحركة وهو قائم على مبدأ عدم التناقض وانتقال الشيء من القوة الى الفعلية.

وهكذا يسقط مفهوم الماركسية عن طبيعة الحركة ويتكشف مدى خطئه. وعلى هذا الضوء ندرك أن الحركة بعد أن كانت خروجاً تدريجياً للشيء من القوة (الامكانية) إلى الفعلية وليست صراعاً بين المتناقضات الموجودة كلها بالفعل - كما تزعم الماركسية - فلا بد لنا من الاذعان بأن الحركة لا توجد بذاتها نتيجة لعامل داخلي في الطبيعة، بل لا بد لها من محرك خارجي، لا بد من سبب خارج عن الشيء ينقله من مرحلة الامكان الى مرحلة الفعلية ولا بد أن يكون هذا السبب الخارجي فوق الطبيعة، لأن كل ما هو من الطبيعة فهو متغير ومتحرك، ومن ثم فهو بحاجة إلى محرك، وهذا السبب الخارجي الذي هو فوق الطبيعة هو الله تعالى.

المسألة الثانية، مجال الحركة

تقسم الماركسية التطور والحركة إلى قسمين: الواقع الموضوعي للطبيعة، والأفكار، فالفكر عندها - كالمادة - مجال لقوانين الحركة في الطبيعة.

خلافاً للواقعية الإلهية في مسألة الأفكار، إذ ان مجال قانون الحركة فيها مقصور على المادة فقط ولا يتجاوزها إلى الأفكار البشرية وتعطيها صفة الثبات.

فالماركسية تلغي من فلسفتها صفة الثبات من أي شيء في عالم الطبيعة وعالم الفكر على السواء، وهذا ما يرفضه العقل السليم، فاننا إذا التزمنا بأن الحركة والتغير سمة للفكر كما هو سمة للطبيعة لم يعد في مقدورنا الوثوق بأي نتيجة، بل لا يعود بالامكان إثبات علم على الاطلاق، لأن التغير يلغي كل الحقائق التي نكون قد توصلنا إليها، فلا بد من الالتزام والتسليم بأن في عالم الطبيعة وعالم الفكر حقائق ثابتة، ينطلق منها الفكر نحو المجهول فيكتشفه، ومن هذه الحقائق قانون الحركة فهو قانون ثابت. ويقضي علينا رأي الماركسية في مجال الحركة أن نقول: إنه متغير، وإذا كان كذلك فثمة إذاً واقع موضوعي لا يسري عليه قانون الحركة، والماركسية على الحالين لا بد لها من الالتزام بوجود حقائق ثابتة لا يجري عليها قانون الحركة.

محاولات الماركسية تعميم التطوير للمادة والفكر.

وقد قامت الماركسية بمحاولات يائسة للبرهنة على مذهبها في تعميم التطوير للمادة والفكر وقد فشلت في تقديم أي برهان صحيح على مدعاها.

المحاولة الأولى: ان الفكر انعكاس للواقع الموضوعي.

إن الفكر انعكاس للواقع الموضوعي، ولذا فلا بد أن يكون مطابقاً له وإلا لم يكن انعكاساً له، حيث إن الحركة ظاهرة طبيعية في عالم المادة فلا بد أن تكون ظاهرة طبيعية في عالم الفكر.

الجواب

ولكن هذا التصوير خاطىء، فان كون الفكر انعكاساً لهذا الواقع الموضوعي لا يعني أن الفكر يشتمل على جميع الخصائص الخارجية للواقع الموضوعي.

فإن الفكر يدرك الواقع الموضوعي المتحرك، مجرداً عن خصائصه الموضوعية

في الخارج، إن الفكر يدرك الشيء باعتباره مفهوماً عقلياً لا باعتباره كتلة خارجية، فالذهن البشري يدرك الحرارة والنار ولا يكون حاراً وناراً ـ ولذا فان الفكر لا يستوعب في داخله حركة الشيء ، إلا أن هذا لا يعني أنه يدرك الشي ء في حالة معينة، ثم يجمد عندها فلا يتعداها بل يدرك أن هذا الموضوع غير ثابت على حالة واحدة، بل هو متغير، ويتابعه في تغيره، فيكون عن كل حالة من حالاته مفهوماً مطابقاً لها.

مثلاً: ميكروب الجدري له خصائص معينة في واقعه الخارجي، فهو يتكون بطريقة معينة، ويشتمل على اجزاء معينة، ويؤدي وظيفته في نشر المرض بطريقة معينة، هذا في وجوده الخارجي، أما في وجوده الذهني الفكري، فالأمر يختلف عن ذلك. إن العالم يمكنه أن يدرك جميع هذه الخواص في المختبر، ولكن هذه الخواص لا تنتقل الى الذهن البشري، وفكرة الميكروب مهما كانت معقدة ودقيقة، لا يمكن أبداً أن تكون مشتملة على خصائص (واقع) الميكروب في الخارج.

فالميكروب يخضع لقانون الحركة في الخارج، وهو يتكون وينمو ويتفاعل مع جسم الانسان ويصيبه بالمرض، هذه الخصائص الموجودة في الخارج أو التي تتولد عن حركة الميكروب في سبيل النمو لا تنعكس في الفكر.

نحن بالفكر نتابع مراحل نمو الميكروب فنأخذ فكرة عن تكوينه وفكرة عن عناصره وفكرة عن تفاعله وفكرة عن طبيعة المرض الذي يسببه ومن مجموع هذه الأفكار نكوّن (مفهومنا) عن الميكروب.

إن الفكر يسجل مراحل حركة المادة في الطبيعة ولا تتولد هذه المراحل في داخله كما تتولد في الطبيعة. فلنتصور انساناً يركض وأن كاميرا تلفزيونية تسجل حركته، إنها تسجل حركته ولا تتحرك معه. وحينما يعرض علينا الشريط المصور ندرك أن الشريط يسجل حركة الراكض في مراحلها ولا يركض مع الراكض في الشريط، كذلك الفكر يسجل حركة المادة في الطبيعة، ولا تجري حركة المادة في الفكر، وما ذلك إلا لأن الحركة تتوقف على وجود خصائص موضوعية للمادة ولا تتوفر إلا في الخارج، وهذه الخصائص لا توجد في داخل الفكر لتتم الحركة في داخل الفكر.

الخلاصة:

الفكر يتابع الطبيعة في حركتها ولا تتحرك في داخله ومعنى أن الفكر يتابع

الطبيعة في حركتها هو أن الفكر عند الإلهي لا يتوقف عند مرحلة من مراحل الموجود الخارجي لا يتعداها، بل يتابع نمو هذا الموجود الخارجي وحركته وتطوره والتغيرات التي تطرأ عليه. والمسألة بديهية الوضوح.

المحاولة الثانية : ان الفكر جزء من الطبيعة .

إن الفكر جزء من الطبيعة والواقع المادي الموضوعي، فهو كما يقولون إنتاج عال للمادة، وإذا كان جزءاً من الطبيعة فلا بد أن تجري عليه قوانينها ومنها قانون الحركة.

الجواب :

أولاً - إن الفكر ليس مادياً، وإنما هو نشاط للجانب العقلي من الانسان، وذلك لأن كون الشيء مادياً يعني أحد أمرين: إما أنه بالذات مادة، أو أنه ظاهرة قائمة بالمادة، والإدراك (الفكر) ليس بذاته مادة ولا هو ظاهرة قائمة بعضو مادي كالدماغ، لأنه يختلف في القوانين التي تسيطر عليه عن المادة نفسها كما يختلف عن الصورة المادية المنعكسة على العضو المادي أو القائمة فيه. وهذا الفهم للادراك يقوم على أمرين، يميزان الفكر عن المادة وعن الظواهر القائمة فيها.

- إن إدراكنا للواقع الموضوعي مختلف في خصائصه الهندسية عن الواقع الموضوعي نفسه، فنحن ندرك الواقع الموضوعي نفسه، وندرك الواقع الموضوعي بكل سعته وشموله وتنوعه وأبعاده، دون أن يتسع المخ لكل هذه الأبعاد والأشكال والتنوعات، وبديهي أنه من المستحيل مادياً عكس صورة حديقة مساحتها كيلو متر مربع على لوحة مساحتها متر مربع مع احتفاظ الحديقة بكل مساحتها الخارجية، واقتصار اللوحة على مساحتها الخارجية، مع أننا بالفعل ندرك الحديقة بكل مساحتها وتنوع موجوداتها، ويستحيل مادياً أن يكون ذلك انعكاساً على جزء ضئيل من المخ.

وإذن فالفكر ليس مادة وليس ظاهرة قائمة بالمادة، ومهما كان التفسير العلمي لادراك الخصائص الهندسية في الصور العقلية، فانه لا يجيب على السؤال الفلسفي عن مكان وجود هذه الصور الكافلة للواقع الموضوعي للحديقة، ويستحيل الجواب على هذا السؤال بأنها صورة مادية، كما يستحيل الجواب بأنها قائمة بالمادة بالمخ، ويتعين الجواب عليه بأنها صورة لا مادية ولا قائمة بالمادة، إنها صورة مجردة عن المادة

قائمة بالجانب الروحي الانساني من الانسان.

٢ - إن الفكر يتسم بظاهرة الثبات، بينما الصور الحسية متغيرة، فالصورة التي ندركها للحديقة، ونحن على مقربة منها تبقى على حالها في ادراكنا محتفظة بجميع خصائصها في حال نظرنا إلى الحديقة من بعيد، حيث تبدو للبصر أصغر مما هي في الواقع، فبالرغم من أن المرئي البصري قد تغير إلا أن الادراك الفكري بقي ثابتاً على حاله، وإذن فالفكر ليس مادة، وليس ظاهرة قائمة بالمادة، وإلا لما تمتع بخاصة الثبات مع طروء التغير على المادة وعلى انعكاساتها ومهما كان التفسير العلمي لظاهر الثبات فانه لا يجيب على السؤال الفلسفي إذ ان الصورة لا يمكن أن تكون هي الصورة المنعكسة عن الواقع الموضوعي على مادة الجهاز العصبي وإلا لطرأت عليها نفس التغيرات. إن هذا يكشف عن أن الادراك ليس مادة ولا ظاهرة قائمة بالمادة وإنما هو نشاط للجانب الروحي الانساني من الانسان.

والجواب:

ثانياً - إن الفكري البشري واحد، فيجب أن يخضع لنفس القوانين، ولذا فيجب أن يؤمن الماركسيون بأن أفكار البشر جميعاً متطورة - لأنها جميعاً نتاج للطبيعة - فلماذا يتهمون أفكار غيرهم بالجمود والتحجر، ويسبغون فضيلة التطور على أفكارهم وحدها، وينبغي أن يتطور الفكر البشري لدى جميع الناس في جميع الأزمان والأمكنة بدرجة متساوية أو متقاربة، فلماذا تفاوتت أفكار الناس على مدى التاريخ.

المحاولة الثالثة:

اعتبار التكامل العلمي في شتى الميادين دليلاً على الحركة الديالكتيكية في الفكر.

الجواب:

والحق أن التكامل العلمي وتقدم العلوم أمر لا يمكن إنكاره، ولكنه لا يصح دليلاً على الدعوى الماركسية، فتقدم العلوم وتكاملها جاء نتيجة لزيادة في كمية الحقائق المكتشفة ينتج عنها تقلص في كمية الأخطاء المتراكمة، نتيجة لعمل العلماء الدائب جيلاً بعد جيل، وليس نتيجة لنمو في داخل كل حقيقة علمية، إن الحقيقة تبدأ بافتراض، وإذا بقي هذا الافتراض ملايين السنين فانه لا يتحول إلى حقيقة، وإنما يبقى

افتراضاً. والذي يحدث أن العلماء يجرون تجاربهم على أساس هذا الافتراض الذي يطرح جانباً حين لا تؤيده التجارب، فاذا ما أيدته ينتقل إلى درجة من الترجيح تحتاج إلى مزيد من التجارب إلى أن يأخذ صفة الحقيقة العلمية. ان الذي جعل الافتراض حقيقة ليس نمو الافتراض وإنما ما أضافتـــه التجـــارب من خبرات مكتشفة، وإذا غدا الافتراض حقيقة في ميدان العلوم فقد يواجه أثناء تطبيقه ما يجعله أكثر وقوفاً أو يدخل عليه تعديلات معينة، أو يلغيه من دائرة العلوم نهائياً. إن كل هذا يعني أن زيادة في كمية الحقائق وتقلصاً في كمية الأخطاء هو ما حصل، وتاريخ العلوم هو تاريخ المحاولات التي تزيد في كمية الحقائق وتقلص في كمية الأخطاء[1].

٢ ـ تناقضات التطور

بعد أن آمنت الماركسية ـ كالواقعية الإلّهية ـ بمبدأ الحركة في الطبيعة وتطور الطبيعة من خلال حركتها العامة ـ بعد ان آمنت بهذا واجهت السؤال الكبير: من أين جاءت الحركة في الطبيعة؟
أجابت على ذلك الواقعية الإلّهية بأن هذه الحركة معلولة لسبب فوق المادة والطبيعة وهو اللّه تعالى.

أما المادية الديالكتيكية فقد رفضت الايمان بالمبدأ الأول (الله) ومن هنا كان عليها أن تجد جواباً على هذا السؤال الكبير، وقد توهمت أنها وجدته في تبني مبدأ التناقض، برفضها لمبدأ عدم التناقض والهوية، فالمادة تحتوي في داخلها على الأضداد والنقـائض، وهي لا بـد تتصـارع لأنها نقـائض وأضداد، وهذا الصراع يولد الحركة التي تؤدي الى التغير والتطور، فالتطور نتيجة لصراع المتناقضات في داخل المادة، فهو ناشىء من سبب مادي ذاتي، وليس من مبدأ خارجي فوق المادة والطبيعة كما هو مذهب الواقعية الإلّهية.

وقد أدى إنكار عدم التناقض وتبني مبدأ التناقض إلى إنكار مبدأ آخر وهو مبدأ الهوية أي أن الشيء عبارة عن عين ذاته وليس عبارة عن شيء آخر.

---

(١) يراجع فلسفتنا ص ٢١٦ ـ ٢٤١ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٢٠٢ ـ ٢١٢

فذهبت الماركسية نتيجة لتبني مبدأ التناقض إلى أنه يجب أن يكون الشيء غير نفسه لأنه ما دام الشيء محتوياً لنقيضه ونفيه، وما دام هذا النقيض نافياً لإثباته ومنتفياً في ذات الوقت في حركة نفي مستمرة، وانتفاء مستمر فلا بد أن تنقلب القضية (أ ـ هي ـ أ) إلى (ليست ا ـ هي ـ أ) دائماً.

والحق ان التناقض كما بيناه في حديثنا عن حركة التطور مستحيل إطلاقاً بحيث لا نتصور أن عقلاً بشرياً سوياً يؤمن بما تدعي الماركسية الايمان به من كون التناقض ـ لا ممكناً فقط ـ وإنما ضرورة في الوجود: فمن المستحيل قبول فكرة أن شيئاً بعينه موجود بالفعل وأنه بعينه معدوم بالفعل في زمان واحد ومكان واحد، وشروط متحدة وظروف متحدة في حالَي الوجود والعدم.

وإنكار الماركسية لمبدأ عدم التناقض ناشيء من أن ماركس وأتباعه لم يفهموا هذا المبدأ أو فهموه ولكنهم أنكروا توصلاً إلى غايات سياسية في نظامهم للاستيلاء على السلطة ولذا فان الماركسية لم تقدم برهاناً على مبدأ التناقض ، وإنما قدمت أمثلة من الطبيعة والمجتمع زعمت أنها مظاهر التناقض في صميم المادة، ولدى مراجعة ما قدمه كتاب الماركسية منذ ماركس وأنجلز من أمثلة وتحليلات يتبين أنه ليس من التناقض المدعى في شيء.

وختاماً:

نلاحظ أن الماركسية نفسها تقدم دليلاً على أن التناقض مستحيل ، وأنها في موقفها تدعم موقف الواقعية الإلٓهية في تمسكها بمبدأ عدم التناقض، وهذا الدليل ناشيء من تمسك الماركسية بمبدأ التناقض الذي أدى بها الى رفض مبدأ عدم التناقض: فالماركسية من إيمانها بمبدأ التناقض ورفضها لمبدأ عدم التناقض تنساق لا شعورياً إلى مبدأ عدم التناقض، وإلا فعليها أن تؤمن بأن الكون يحتوي المبدأين معاً: التناقض وعدمه[1].

وما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

---

(١) يراجع فلسفتنا ص ٢٤١ ـ ٦٦٥ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٢١٣ ـ ٢١٥

٣ - قفزات التطور

هذا القانون يتكون من النقاط التالية:

١ - أن حركة التطور هي انتقال من التراكم الكمي إلى التغير النوعي.

٢ - أن هذا الانتقال ليس تدريجياً، وإنما هو دفعي يحدث فجأة وبقفزات.

٣ - أن التغيرات النوعية الفجائية ليست دائرية، وإنما هي حركة تقدمية صاعدة، وانتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة.

والماركسية ترى أن هذا القانون حتمي في الطبيعة والمجتمع - أي في المادة وفي الفكر - والماركسية - كما هو شأنها في قانون تناقضات التطور - لا تقدم دليلاً فلسفياً على دعواها وإنما تقدم جملة من الأمثلة تدعي أنها نماذج لما يحدث في الطبيعة والمجتمع على نطاق مستوعب شامل.

وترى الواقعية الآلهية أن هذا القانون باطل، وأن الماركسية وضعته لخدمة أهدافها السياسية - كما فسر فيما مضى - وأن المبادىء التي يتألف منها هذا القانون غير صحيحة وبيان ذلك:

أولاً - في طريقة البرهان:

تعمد الماركسية هنا - كما هو الشأن في قانون تناقضات التطور - إلى البرهان على موقفها بسرد جملة من الأمثلة كما مضى، ولو سلمنا بصحة هذه الأمثلة في دلالتها فانها لا تدل على أن مضمونها قانون عام في الطبيعة والمجتمع، وإنما غاية ما تدل عليه هو صحة مضمونها فقط، فمثال الماء حين يتحول - بالحرارة - دفعه إلى غاز حين تبلغ درجة الحرارة (١٠٠) هذا المثل لو سلمنا به، وهو غير مسلم، إنما يدل على صدق قانون قفزات التطور بالنسبة إلى الماء فقط، ولا يمكن الانتقال منه الى جميع الموجودات الطبيعية، وهكذا الحال بالنسبة الى جميع الأمثلة الأخرى.

وعلى هذا الضوء، فقانون التطور مجرد دعوى فلسفية وليس حقيقة فلسفية، لأنه لم يقم عليه برهان صحيح.

ثانياً - في مبادىء القانون:

أ - تحول التغير الكمي إلى تغير كيفي.

والمثال المتداول هو الماء والحرارة، فإن الماء إذا ارتفعت حرارته (كميات

الحرارة) إلى أن تتراكم وتبلغ درجة (١٠٠) ينقلب من حالة السيلان إلى حالة الغاز، فتكون التغيرات (الكمية ـ الحرارة في المثال) قد أدت إلى تغيرات الحالة الغازية في المثال) .

ولكن تصوير المثال غير صحيح فإنه مبني على اعتبار الحرارة شيئاً كمياً في الماء، وهي في الحقيقة ليست كذلك، بل هي كيفية، فالتغير الكيفي ـ الحرارة ـ أدى إلى تغير كيفي هو الحالة البخارية أو الغازية.

ونلاحظ أن هذا المثال بالأسلوب الذي يفرضه الماركسيون يحتوي على التضليل، فاذا افترضنا أن الحرارة، في الأسلوب العلمي، ظاهرة كمية تقاس بالدرجات، والبخار أو الغاز ظاهرة كمية تقاس بموازين الضغط أو بعلاقات الذرات، فهنا إذن كميتان، فزيادة كمية الحرارة أدت إلى تغير كمي في الماء ـ أما إذا قلنا: إن الحالة البخارية أو الغازية حالة كيفية لأن كيفية الماء في حسنا تتغير، فان الحرارة أيضاً حالة كيفية لأن حالة إحساسنا بها تختلف عن كيفية إحساسنا بالبرودة.

فهنا إذن كيفيتان، أدى تغير كيفية الحرارة إلى تغير كيفية الماء.

والماركسية تجافي الدقة العلمية لأجل أن تجعل المثال مطابقاً لدعواها فتنظر إلى الحرارة بأسلوب المقياس العلمي، وتنظر إلى الحالة البخارية أو الغازية على أساس حسي.

ب ـ الانتقال بالقفزة والدفعة:

إن الواقعية الإلهية لا تجادل في وجود التطور الدفعي في الطبيعة، ولكنها لا تعتبر ذلك قانوناً كونياً شاملاً لأنه كما تشتمل الطبيعة على مظاهر للتطور الدفعي تشتمل كذلك على مظاهر للتطور التدريجي.

فكما نلاحظ أن الماء يتطور من الحالة السائلة إلى الحالة البخارية أو الغازية دفعة، نلاحظ أيضاً أن تطور الجرثومة الحية في البيضة إلى فرخ والفرخ إلى دجاجة، إنما هو تطور تدريجي وليس تطوراً دفعياً، وكذلك الحال في تطور البذرة إلى شجرة فإنه تطور تدريجي وليس تطوراً دفعياً.

ج ـ إن التطور ليس دائرياً، وإنما هو تقدمي تصاعدي دائماً إلى الامام.

لا تنكر الواقعية الإلهية أن التطور في الطبيعة تكاملي وتقدمي، ولكنها تنكر أنه دائماً كذلك وأنه لا يكون دائرياً في حالة من الحالات، بل تلاحظ الواقعية

الإلٓهية أن التطور في كثير من الحالات يكون دائرياً.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك: مثال الماء الذي يتحول إلى بخار ليعود إلى ماء، فالحركة التطورية هنا دائرية وليست تقدمية.

هذه الملاحظات على طريقة البرهان وعلى مبادىء القانون تكشف عن زيف قانون قفزات التطور.

ملاحظات أخرى على مثال الماء

١ - إن الحركة في الماء ليست ديالكتيكية، لأنها - كما نعلم - ليست ناشئة عن تفاعل ذاتي في داخل الماء، بل هي بواسطة الحرارة الخارجية، وإذا كانت ظاهرة التبخر في الماء نموذجاً لما يحدث في الطبيعة والمجتمع فلا بد لنا من القول بأن كل الحركات التطورية الدفعية والتدريجية تحدث بواسطة عوامل خارجية، وحينئذ لا يكون التطور حتمياً لأنه ناشىء من حركة ذاتية في داخل المادة، إذ نلاحظ أنه لا توجد حركة ذاتية في داخل المادة، وإنما هي حركة تنشأ من عامل خارجي فتتوقف الحركة التطورية على وجود العوامل الخارجية المواتية في الطبيعة والمجتمع على حد سواء

٢ - إن القفزات التطورية في الماء لا تستوعبه دفعة واحدة، وإنما يتبخر الماء على دفعات لتستوعب الكمية كلها أو لا تستوعبها كلها - حسب توفر العوامل الخارجية للتبخر.

وإذن، فلا وجه للقول بأن هذا القانون في الحياة الاجتماعية، يقضي بقلب النظام الاجتماعي دفعة واحدة.

ولماذا لا يقال: إن القانون يقضي بالتطور المرحلي الاصلاحي في المجتمع كما هو الحال في الطبيعة، فيتناول التطور قفزات جزئية تتناول المؤسسات التي توفرت لها الظروف الاجتماعية القاضية بحدوث انقلاب فيها؟[1]

---

(١) يراجع فلسفتنا ص ٢٦٥ - ٢٧٦ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٢١٦ - ٢٢٠

٤ ـ الارتباط العام

قال ستالين :

« إن الديـاليكتيك ـ خلافـاً للميتافيزيقيـة لا يعتبر الطبيعـة تـراكماً عرضياً للأشياء، أو حوادث بعضهـا منفصل عن بعض، أو أحدهـا منعزل مستقل عن الآخر، بل يعتبر الطبيعـة كلاً واحداً متماسكـاً، ترتبط فيه الأشيـاء والحوادث فيما بينهـا ارتباطـاً عضويـاً، ويتعلق أحدهـا بالآخر، ويكون بعضهـا شرطـاً لبعض بصورة متقابلـة » .

هذه هي دعوى المـاركسية، وهي تريد أن تنسب إلى نفسها فضيلـة اكتشاف هذا القانون دون سِواهـا من الفلسفـات الميتافيزيقيـة .

ولكن الحقيقة على خلاف ذلك تمامـاً، وقد تـورط أئمـة الماركسية: ماركس وانجلز وسواهما في هذه الدعوى إما لجهلهم بموقف الميتافيزيقية والواقعيـة الإلٓهيـة بوجه خاص وإما بدافع من النيـة السيئـة .

فإن الواقعية الإلٓهية تؤمن بقانـون الإرتبـاط قبل أن يكون للدياليكتيك في دنيـا الفلسفة وجود، بـل إن قانون الإرتبـاط العام في الواقعية الإلٓهية ركن أساس لا يمكن تكوين نظرة متكاملـة عن الكون والحيـاة إلا من خلاله .

ولكن الواقعيـة الإلٓهية لا تبني موقفها من قانون الإرتبـاط العـام على أساس الدياليكتيك الذي تؤمن بـه الماركسية والذي ستعرف زيفه وبطلانه في بحث لاحق، وإنما تبني موقفهـا من هذا القانون على اساس مبدأ العلّية الذي لا يمكن فهم الوجود إلا من خلالـه ، وسوف يأتي تفصيل ذلك .

فـالواقعيـة الإلٓهية ترفض مبدأ وجود الكـون بالصدفـة، كما ترفض وجود الكـون نتيجـة لضرورة ذاتيـة محتواة في داخل عنـاصره، وإذا بطل هذان الإحتمالان تعين أن يكون العـالم موجوداً نتيجـة لنظـام العلّية المتسلسل إلى نهايتـه وهي العلة العليا والنهائيـة ، وهي الله سبحانـه وتعالى .

فكل جزء من أجزاء الكون في الطبيعة والانسان يدخل في سلسلة من النتائج لغيره كما يدخل في سلسلة من الأسباب لغيره، وإذن، فمن جهة نظرة الواقعية الإلّهية، لا يمكن فهم شيء ما لم يربط بعلله وأسبابه وشروطه، وبالإجمال جميع الظروف المؤثرة في وجوده وصيرورته.

وعلينا أن نعلق - قبل إنهاء هذا البحث - على كلمة ماركس الآنفة التي يقول فيها عن الأشياء والحوادث: «ويتعلق أحدها بالآخر ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة».

إن الواقعية الإلّهية ترفض فهم الارتباط العام على هذا الأساس، فإن قانون الارتباط على ضوء هذه العبارة يكون دائرياً، أي أن العنصرين المترابطين أحدهما سبب في وجود الآخر، ومسبب عنه في الوقت نفسه وهذا مستحيل لأنه يفترض وجود الشيء وعدمه، في آن واحد وهو باطل، لأنه مستحيل، بل إن نظام العلّية يعمل إما بصورة أفقية أو بصورة عمودية ومجموع العلل والأسباب في الكون يتجه اتجاهاً عمودياً ينتهي في الآخر إلى العلة الأولى والعليا وهي الله تعالى، فما يكون سبباً لوجود الشيء أو حالة لا يكون مسبباً عن ذلك الشيء أو تلك الحالة، وإلا لكان الدور الباطل المستحيل[1].

الماركسية والعلم والسياسة والقوانين الأساسية الأربعة للمادية الديالكتيكية

تدعي الماركسية بأن قضاياها النظرية السياسية الداخلية والخارجية تنطلق:

١ - من الموقف الفلسفي الشامل لجميع الظواهر في الطبيعة والمجتمع.

٢ - من أن نضالها السياسي ليس ناشئاً من طموحات فردية أو جماعية أو فئوية لا صلة لها بالواقع الموضوعي للمجتمع، كما تتهم منافسيها سياسياً بذلك، وإنما هو حركة مبنية على فلسفة في المجتمع هي المادية التاريخية الشاملة للكون بما فيه الانسان أي المادية الديالكتيكية ولذا فإن القوانين الأساسية في المادية الديالكتيكية هي أربعة:

(١) يُراجع فلسفتنا ص ٢٧٦ - ٢٨٧ مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٢٢١ - ٢٢٣

١ ـ قانون حركة التطور.
٢ ـ قانون تناقضات التطور.
٣ ـ قانون قفزات التطور.
٤ ـ قانون الارتباط العام.

وهذه القوانين أملاها الفكر المادي الماركسي، ومن ثم اتخذها سلاحاً نظرياً في التعامل مع الطبيعة والمجتمع في العمل العلمي وفي العمل السياسي في المجتمع.

الماركسية تدعي أنها تعمل هذا ولكنه بمراجعة بسيطة يظهر أن الماركسية لا تبني مواقفها السياسية على أساس من تفكيرها الفلسفي، وإنما تحاول أن تجعل من تفكيرها الفلسفي مبرراً لعملها السياسي، مما يحملها على التعسف والتزوير لصياغة أفكار تدعي لها صفة الحقيقة لتكون سنداً لمواقفها السياسية، وهذا واضح من مواقفها السياسية[1].

١ ـ المدلول السياسي لقانون حركة التطور

لماذا تذهب الماركسية ـ خلافاً للحقيقة الموضوعية ـ إلى أن قانون الحركة يتجاوز الواقع الموضوعي المادي إلى عالم الفكر، فترى أن الفكر ينمو ويتغير بالحركة كما تنمو المادة وتتغير بالحركة.

والجواب الذي يكشف عن خلفية المراوغة هو السؤال في حالين:

١ ـ أن الماركسية عندما وضعت قانونها هذا، كانت تعلم أنها ستخوض صراعاً مع الفلسفة الإلّهية (الميتافيزيقية) ومع المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية ـ التي تنتسب حقاً أو باطلاً ـ إلى هذه الفلسفة.

لأن الفلسفة الميتافيزيقية تستند إلى جملة من الحقائق المطلقة والنهائية الثابتة غير القابلة للتغير والنمو والتطوير، وإن قانون الحركة لا يتعدى عالم المادة الى عالم الفكر، والماركسية لا يمكن أن تتجاهل ما تذهب إليه الفلسفة الميتافيزيقية، بل لا بد لها من الايمان بها، وهذا يعني قوة لموقف الميتافيزيقية ومن ثم قوة لمؤسساتها في المجتمع.

---

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٣٧ ـ ٣٨

فأعلنت الماركسية قانون الحركة الشامل للمادة والفكر معاً وأنكرت وجود حقائق مطلقة في المادة وفي الفكر ،ليجعل الماركسية في وضع أفضل في المعترك السياسي ويجرد الميتافيزيقية من ركائزها الأساسية ويجعلها تمثل مرحلة فقط في سير الطبيعة والإنسان نحو التكامل والتطور الصاعد أبداً.

٢ ـ إثبات صحة مواقفها السياسية ، بل وعصمتها ، خلال نضالها من أجل فرض السيطرة ، فكل موقف سياسي صواب ، وإذا انكشف خطأه ، كان صواباً نسبياً ، وهكـذا تجد المعـاهدة مع هتلر ومهـادنة النـازية وإثارة الفوضى بين القوميات والشعوب كما يحدث الآن في مساعدتها لأثيوبيا ضد أرتيريا وللهند ضد باكستان ولليمن الجنوبي ضد اليمن الشمالي ، مكاناً لها في الحقيقة كما تجد السياسة الاقتصادية الجديدة مكاناً لها في خانة الحقيقة ، وبذلك يمكن أن تكون المواقف السياسية المتناقضة صحيحة كلها.

فالحق أن اعتبار الماركسية قانون الحركة شاملاً لعمليات الفكر ، ناشيء من الرغبة في إيجاد التبرير السياسي وإن أدى ذلك إلى تجاوز الحقيقة الفلسفية.[١]

٢ ـ المدلول السياسي لقانون تناقضات التطور

لقد اعتمدت الماركسية في العمل السياسي مبدأ صراع الطبقات في المجتمع وتحريك الصراع في المجتمعات التي تنعم بالاستقرار وتمضي بتأجيج الأحقاد الطبقية والفئوية إلى أن تصل حالة الانقسام والعداء ، ومن ثم تفجير الصراع بالثورات والحروب الأهلية ، وإن توقف ذلك على تأييدها لأنظمة الحكم الرجعية وتأييد الحكام الطغـاة ومحاربـة الأنظمة التقـدميـة على غير الأسلوب الماركسي ، كما تفعل الآن مع الشعب الأرتيري وإسقاط الحكم ذي النزعة الاصلاحية وذلك لأجل أن تساهم أنظمة الحكم الرجعية والحكام الطغاة في إنزال أفدح الظلم بالفئات الاجتماعية الأقل حظّاً من خيرات الانتاج العامة للثروة ، فتزداد نقمة هذه الفئات ويؤدي ذلك إلى ارتفاع حدة الصراع الطبقي ، وهذا يعجل بالثورة التي تؤدي إلى سيطرة الماركسية على السلطة ـ بينما تفعل أنظمة الحكم التقدمية ـ غير الماركسية ـ والحكام ذوو النزعات الاصلاحية على انصاف الفئات المحرومة ، ويؤدي ذلك إلى شعورها بالانصاف والعدالة ، فينزع من صدورها الغل والحقد ويدفع بها نحو التعاون مع غيرها من الفئات بدل الصراع ، وهذا يبعد فرصة استيلاء الماركسيين على السلطة.

---

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٣٩ ـ ٤٠

لقد اعتمدت الماركسية مبدأ الصراع الطبقي في عملها السياسي ، وهو غير أخلاقي وغير إنساني، وهو معرض للإدانة من أي إنسان مستقيم الفكر والضمير، والذي يحمل الماركسية على أن تجد سنداً فلسفياً علمياً لاعتمادها الصراع الطبقي في عملها السياسي أمران:

١ ـ دفع الاعتراض الأخلاقي عليه، فإن القوانين العلمية لا تخضع للاعتبارات الأخلاقية مع أنها حتمية ولا شأن فيها للاختيار البشري والضمير، ولذا فلا مجال للاعتراض على هذا المبدأ من الناحية الأخلاقية.

٢ ـ إعطاء المبدأ صفة العلمية والحقيقة الفلسفية لئلا يخطر في بال أحد من الناس أنه مجرد تغطية أدبية إنشائية لأسلوب سياسي ، وبهذا يكتسب المبدأ قوة التأثير باعتباره حقيقة علمية فلسفية ويدفع عنها صفة اللاأخلاقية واللاإنسانية.

والحق أن الصراع موجود في المجتمع السياسي ، بلا شك، ولكن التعاون موجود في المجتمع السياسي أيضاً، فالصراع أو التنافس ليس قانوناً عاماً شاملاً وثابتاً في حركة التاريخ وإنما هو أحد مظاهرها، والتاريخ يتحرك وينمو من خلال تفاعل جملة من العوامل.

وأما الصراع في الطبيعة فالقانون الظاهر هو قانون التكامل، وليس مبدأ التناقض، وتطور الطبيعة ونحوها يتم من خلال تكامل قواها وعناصرها وتعاونها وليس من خلال تناقضها، وما يبدو تناقضاً في الطبيعة يكشف ـ حين دراسته على شروط التناقض ـ أنه ليس من التناقض في شيء وإنما اعتبره الماركسيون تناقضاً بسبب جهلهم لقانون التناقض أو بسبب حرصهم على إيجاد المبرر الفلسفي للعمل السياسي المراوغ.

ومبدأ تناقضات التطور يقضي على الماركسية بأحد أمرين:

١ ـ أن نفرض أن قانون تناقضات التطور يستمر حتى بعد تكون المجتمع الشيوعي الكامل، وهذا يقضي بأن يعجل هذا القانون عمله في نفي الماركسية نحو مرحلة تتجاوزها في نمو التاريخ وهذا يعني أن الماركسية مرحلة وليست نهاية حركة التاريخ، وهكذا تأتي مرحلة تاريخية تلغي الشيوعية وتكون أكثر تطوراً وتقدماً منها، على اعتبار أن حركة التاريخ تسير في خط صاعد دائماً.

٢ ـ أن نفترض أن قانون تناقضات التطور يتوقف عن العمل ويبطل أثره،

وحينئذ فهل يكف المجتمع عن العمل ويبطل أثره، وحينئذ فهل يكف المجتمع عن الحركة؟ وهل تتوقف حركة التاريخ عند حد لا تتعداه؟

أي الافتراضين يختار الماركسيون يكون إبطالا لدعواهم وفلسفتهم من أصلها[1].

٣ ـ المدلول السياسي لقانون قفزات التطور.

اعتمدت الماركسية في عملها السياسي لتسلم السلطة مبدأ الانقلاب المسلح والثورة، ورفضت الحلول السلمية والعمل الديمقراطي البرلماني الذي اعتمده الفكر السياسي في أوروبا، ومن ثم فهي تحارب الاصلاحيين الذين ينتهجون سبيل التغيير التدريجي السلمي، ليصلوا بالمجتمع إلى مستويات أفضل في أوضاعه الحياتية، وترى الشيوعية أن تغيير المجتمع السياسي وتحقيق العدالة لا يكون إلا بالعنف والثورة لجميع قواعد المجتمع من جذورها دفعة واحدة، والنصوص الماركسية الأساسية في هذه المسألة واضحة صريحة لا تترك مجالاً للتأويل، قال ماركس وأنجلز:

« ولا يتدنى الشيوعيون إلى إخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم، يعلنون صراحة أن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بهدم كل النظام الاجتماعي التقليدي بالعنف والقوة[2] » وقال لينين:

« إن الثورة البروليتارية غير ممكنة بدون تحطيم جهاز الدولة البرجوازي بالعنف[3] » وقد رأى المفكرون السياسيون للشيوعية أن يلتمسوا لموقفهم السياسي سنداً علمياً ـ فلسفياً يحقق لهم هدفين:

١ ـ إسكات خصومهم السياسيين في الجدل حول أسلوب التغيير السياسي للمجتمع، بأن الثورة المسلحة على المؤسسات القديمة بالعنف ليس أمراً خاضعاً للاختبار البشري الذي يسمح بالجدل وتفضيل أسلوب آخر، وإنما هو قانون حتمي ثابت في الطبيعة والتاريخ، ولذا فلا مناص من المصير إليه.

---

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٤٠ ـ ٤٣

(٢) البيان الشيوعي ص ٨

(٣) أسس اللينينية ص ١٦

٢ ـ إظهار أن مواقفهم السياسية نابعة من موقف علمي ـ فلسفي ـ وليست نتيجة اختيارات آنية تمليها الضرورات السياسية في الحياة المتغيرة المتقلبة للمجتمع السياسي.

ولم تقدم الماركسية دليلاً على دعواها لقانون قفزات التطور وإنما عرضت جملة من الأمثلة التي يكشف النقد الموضوعي زيفها وخطأها وبطلانها.

والشيوعية في مبدأ قانون قفزات التطور كسائر المبادىء والأسس الماركسية ليس علمياً ولا فلسفياً وإنما هو تغطية وتبرير لأسلوب السياسة الماركسية في الثورة المسلحة، التي لا ضرورة لها مع توفر إمكانات الاصلاح والتغيير نحو الأفضل بالأساليب السلمية تكون ـ بلا ريب ـ عملاً غير أخلاقي وغير إنساني ومن ثم غير شرعي، نعم قد تكون الثورة المسلحة ضرورية حين تفشل جميع الطرق السلمية ووسائل الاصلاح فقط.[١]

٤ ـ المدلول السياسي لقانون الارتباط العام

قانون الارتباط العام يقضي بأن لكلّ نشاط إنساني في الطبيعة أو المجتمع أثراً ينعكس على شبكة العلاقات بين الأشياء والمواقف والجماعات. وهذا القانون صحيح وصادق في الطبيعة والمجتمع وقد سبقت الواقعية الإلّهية إلى الكشف عن هذا القانون، ولكنه يستند إلى أساس العلّية، لا إلى ما تدعيه الماركسية من مبدأ التناقض.

والماركسية لم تكتشف قانون الارتباط العام ولكنها برعت في استخدامه على الصعيد السياسي واستثمرته لمصالحها وحدها حين تكون هي الحاكمة.

فالمدلول السياسي لهذا القانون في التطبيق الماركسي، هو أن الماركسيين ينتفعون بجميع الفرص التي يتيحها لهم اي نظام سياسي يعملون في ظله، فهم مثلاً ينتفعون بحرية الكلام، والتظاهر والتنظيم الحزبي والنقابي والصحافي وغير ذلك من الحريات التي يتيحها لهم هذا النظام الديمقراطي البرلماني إذا كانوا يعملون في ظل نظام كهذا، كما تنتفع بها سائر الجماعات السياسية التي تعمل في ظل هذا النظام، وهذا أمر طبيعي في إتاحة هذه الحريات للجماعات السياسية العاملة في

---

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٤٤ ـ ٤٦

المجتمع، ومن حق هذه الجماعات أن. تستفيد في عملها السياسي من هذه الحريات، ضمن هذه الأصول الأساسية التي يقوم عليها النظام الديمقراطي.

ولكن الماركسية عندما تنتصر تتخذ من مسألة الحريات موقفاً آخر، فهي تصادر حرية الجماعات السياسية الأخرى في المجتمع في التعبير عن الرأي والتنظيم الحزبي والنقابي وغير ذلك، وتستأثر لأجهزتها وحدها بكل هذه الحريات بدعوى أن هذه الجماعات السياسية الأخرى تمثل تطلعات سياسية معادية للشعب (ولا حرية لأعداء الشعب) والحقيقة هي أن الجماعات السياسية قد لا تكون عدوة للتطلعات الشعبية، وكل ذنبها أنها تعتمد عقيدة سياسية غير الماركسية، ولكن هذا وحده في نظر الماركسية، سبب كاف لمصادرة حرياتها.

والماركسية تستند في موقفها هذا إلى رغبة طبيعية، ولكنها غير عادلة، وفقاً للشعارات التي تنادي بها، في الاستئثار بالسلطة، وفي تفويت جميع الفرص التي تتيح للشعب أن يطلع على وجهات نظر أخرى في قضاياه الحياتية والسياسية وإن الجماعات السياسية الأخرى في المجتمع إذا اتيح لها الحريات السياسية الأخرى في المجتمع، فستكشف أخطاء الممارسات التي يقوم بها النظام الحاكم، وهذا يؤدي إلى تكوين قناعات لدى الشعب لن تكون في مصلحة هذا النظام الذي سيفقد تدريجيّاً سلطته وقدرته على التأثير، ولذا فهي تصادر حريات الآخرين، لتحول بينهم وبين الانتفاع بقانون الارتباط العام في التأثير على الوضع السياسي للمجتمع، وتعطي لنفسها حرية الانتفاع بقدرة التأثير التي يوفرها هذا القانون.

فالماركسية حين تحكم تمنع الآخرين ما تطالب به هي وتحصل عليه في الغالب حين تكون هي الحاكمة.

والماركسية تستثمر قانون الارتباط العام لمصالحها وحدها حين تكون هي الحاكمة بينما يكون استثمار هذا القانون العام في العمل السياسي ممكناً لجميع الفئات السياسية في ظل الأنظمة التي تعطي الحرية لجميع الفئات السياسية[1].

---

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٤٧ - ٤٩

هل مبدأ العلّية عقلي أم حسي ؟
هل تحتاج الأشياء إلى علل ؟
إلى أين ينتهي بنا مبدأ العلّية ؟
هل الكون بحاجة إلى علّة أولى خالقة ؟
مبدأ العلّية وقوانينه .
وهل العلّة الأولى الله أو المادة ؟
على ضوء الحقائق التالية .
النتيجة .
الماركسية ونشوء الكون .
خصائص المادة عرضية .
الإلّهي والمادي .
المفاهيم الكونية الثلاث :
١ ـ المثالي .
٢ ـ المادي .
٣ ـ الإلّهي .
الإلّهي والعلمي .
الفرق بين الإلّهي والمادي .



هل مبدأ العلّية عقلي أم حسي ؟

إن مبدأ العلة قائم على أساس عقلي نظري تجريدي وهو فوق الحس والتجربة وليس قائماً على أساس حسي ولا تجريبي .

فبدأ العلية ، ليس حسياً ، لأن الحس لا يكتسب صفة الحقيقة الموضوعية إلا عن طريق مبدأ العلّية ، فليس من المعقول أن يكون مبدأ العلية مديناً للحس في ثبوته .

ومبدأ العلّية ليس نظرية علمية تجريبية ، لأن جميع النظريات العلمية تتوقف عليه ، إذ ان كل استنتاج علمي قائم على التجربة ، والتجربة تقوم على نماذج محدودة ، فلا تكون هذه النماذج المحدودة دليلاً على نظرية عامة ، ولتعميم نظرية التجربة فلا بد من العودة إلى العلّية وقوانينها الثلاثة :

١ ـ مبدأ العلّية .
٢ ـ قانون الحتمية .
٣ ـ قانون التناسب .

وإذا افترضنا أن مبدأ العلّية يتوقف على التجربة فسنواجه مشكلة العموم والشمول أيضاً ، على أساس مبدأ العلية نفسه ، لأن التجربة ليست مستوعبة للكون ، فكيف تكون دليلاً على نظرية عامة شاملة وهذه المشكلة وغيرها من النظريات العلمية إنما تحل إذا أسندت إلى مبدأ العلّية ، لكونه دليلاً على عموم النتيجة وشمولها ، فإذا اعتبر نفس مبدأ العلية تجريبيّاً ، وعرضت علينا مسألة العموم والشمول بالنسبة إلى مبدأ العلية فسوف نعجز عن الجواب عنه .

إذن، فلا بد أن يكون مبدأ العلّية فوق التجربة، وقاعدة أساسية لكل الاستنتاجات التجريبية، وليس حسياً ولا تجريبيّاً، ومتقدمة على جميع الاستدلالات الحسية والتجريبية[1].

هل تحتاج الأشياء إلى علل؟

بعد أن ثبت مبدأ العلية وقوانينه وأنه عقلي لا حسي ولا تجريبي، وأن كل شيء يحتاج إليه، فهل تحتاج الأشياء إلى علل، ولماذا لاتوجد بدون علل؟

وقد أجاب عن ذلك الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي بما ملخصه: إن علاقة العلّية بين العلة والمعلول هي ارتباط بين شيئين، وللارتباط مظاهر متنوعة، ولكنها جميعاً ترجع إلى نوعين أولهما: أن يكون لكل من الشيئين المرتبط أحدهما بالآخر وجود مستقل سابق على حصول الارتباط: يكون القلم - مثلاً - موجوداً بصورة مستقلة، ويكون الكاتب موجوداً بصورة مستقلة، ثم يحصل الارتباط بينهما حين يستخدم الانسان القلم للكتابة. ويكون القماش - مثلاً - موجوداً بصورة مستقلة، ويكون الشخص موجوداً بصورة مستقلة أيضاً، ثم يحصل الارتباط بينهما حين يلبس الشخص القماش ثياباً، وهكذا.

ثانيهما: أن لا يكون لأحد الشيئين وجود مستقل عن وجود الآخر وهذا هو رباط العلّية مثلاً (ب) ارتبط بـ (أ) برباط العلية، ففي هذه الحالة لا يكون لـ (ب) وجود مستقل عن وجود (أ) وإنما حقيقة وجود (ب) عبارة عن ارتباطه وعلاقته بـ (أ) فلو انقطع هذا الارتباط انقطع وجود (ب) بالضرورة، وهذا بخلاف ما إذا كان الارتباط ليس على نحو العلّية، فإن انقطاع الارتباط بين القلم والكاتب لا يؤثر على الوجود المستقل لكل منهما، وإنما يحتفظ كل واحد منهما بوجوده المستقل قبل الارتباط ومعه وبعده، بينما المعلول يكون وجوده منبثقاً عن العلة حال ارتباطه بها، أما قبل ذلك فلا وجود له وأما بعد انقطاع الارتباط فينعدم فوراً.

وإذن فالحقائق الخارجية ليست في الواقع إلا تعلقات وارتباطات، فالتعلق والارتباط مقوم لكيانها ووجودها، وليس في احتياجها إلى العلة أن وجودها وكيانها عبارة عن الارتباط والتعلق بمنبع وجودها المباشر، وهو العلة[2].

(١) يراجع فلسفتنا ص ٢٨٧ - ٢٩٩ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٧٦ - ٧٧

(٢) يراجع فلسفتنا ص ٢٩٩ - ٣١٢ مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٧٨

إلى أين ينتهي بنا مبدأ العلّية؟

إن مبدأ العلية في الكون، من أصغره كالذَّرة إلى أكبره كالمجرَّة، ينتهي بنا إلى قانون النهايـة أن العلل المتصاعدة التي ينبثق بعضها عن بعض، لها بداية وهي علة أولى هي علة العلل، وهي لم تنبثق عن علة سابقة.

لأن العلل لا يمكن أن تذهب متصاعدة بغير نهاية لها، فإن الموجودات المعلولة كلها ارتباطات، وهي تحتاج إلى حقيقة مستقلة تنتهي إليها، وإلا فالسؤال لماذا يبقى قائماً بالنسبة للموجودات كلها ويقع التسلسل اللانهائي في العلل وهو مستحيل.

وإذن فإن عقولنا تبعثنا إلى الإيمان بسبب أول متحرر من مبدأ العلّية ـ أي لا علة له ـ مستقل بذاته عن كل شيء، فلا نواجه بالنسبة إليه سؤال لماذا؟.

فان انقياد الكون كله لمبدأ العلية وقوانينه قادنا إلى الإيمان بعلة أولى واجبة الوجود بالذات ـ فالوجود ذاتي لها والذاتي لا يعلل ـ أي غير محتاجة إلى علة، ولا يسع الإنسان إلا الإيمان بهذه الضرورة العقلية لأن رفضها يؤدي إلى التسلسل اللانهائي المستحيل[١].

هل الكون بحاجة إلى علة أولى خالقة؟

هل نحن بحاجة إلى الاعتقاد بوجود علة أولى للكون أم لا؟

وإذا آمنا بلزوم علة أولى للكون، فهل هذه العلة الأولى هي الله، كما تقول الفلسفة الإلّهية، أم المادة، كما تقول الفلسفة المادية؟

إن مبدأ العلية ـ توقف كل موجود ممكن على علة لوجوده ـ من البديهيات الأولية التي يدركها العقل البشري، أن الإنسان يجد في صميم طبيعته ما يبعثه إلى تعليل الأشياء والظواهر واكتشاف أسبابها، وكل معرفة بشرية نظرية كانت أو تطبيقية تتوقف على التسليم بمبدأ العلية وقوانينه وهي:

(١) يراجع فلسفتنا ص ٣١٢ ـ ٣١٤ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٧٩.

١ ـ مبدأ العلية، أن لكل معلول علة، أو لكل شيء سبباً.
٢ ـ قانون الحتمية يتولد عنه بالنتيجة الحتمية ـ سببه.
٣ ـ قانون التناسب بين الأسلوب والنتائج، أن كل مجموعة متفقة في حقيقتها، يلزم أن تتفق في أسبابها ونتائجها. ويتوقف على مبدأ العلية وقوانينه الأمور التالية:
١ ـ إثبات الواقع الموضوعي للإحساس في التجربة الشخصية المادية.
٢ ـ النظريات والقوانين المستندة إلى التجربة.
٣ ـ جواز الاستدلال وانتاجه في ميادين الفلسفة أو العلم، ولولا مبدأ العلية وقوانينه لما أمكن اثبات شيء من القواعد الفلسفية العلمية والتجريبية[١].

هل العلة الأولى الله أو المادة؟

فالكون يتألف من مائة وعنصرين أساسية، والهيدروجين أول هذه العناصر فهو يحتوي في نواته على شحنة واحدة موجبة يحملها بروتون واحد ويحيط بها الكترون واحد ذو شحنة سالبة ويقع في نهاية العناصر النويليوم فرقه الذري (١٠٢) أي أن نواته تشتمل على (١٠٢) وحدة من وحدات الشحنة الموجبة ويحيط بها ما يماثل هذا العدد من الالكترونات ذات الشحنات السالبة.

وقد أثبت العلم التجريبي أن خصائص هذه العناصر غير نهائية وغير ثابتة، بل يمكن تبدل بعضها ببعض وهذا التبدل بعضه يتم بصورة تلقائية، وبعضه يمكن إحداثه بالوسائل العلمية، فعنصر اليورانيوم ـ مثلاً ـ يطلق أنواعاً ثلاثة من الأشعة، منها أشعة (ألفا) وهي عبارة عن ذرات عنصر الهيليوم، ويتحول اليورانيوم تدريجياً إلى راديوم،ويتحول الراديوم ـ بعد عدة تحولات عنصرية ـ إلى عنصر الرصاص.

وقد تمكن العالم الطبيعي (ردزفورد) من تحويل عنصر إلى عنصر آخر يجعل ذرات الهيليوم تصطدم بذرات الآزوت، فنتجت ذرة هيدروجين من ذرة الآزوت، وتحولت ذرة الآزوت إلى أوكسجين.

وهكذا غدا من الثابت أن خصائص العناصر (المادية) ليست ذات قيمة للعناصر. وقد استطاع العلم التجريبي ـ على ضوء نسبة أينشتين أن ينزع من

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٧٥ ـ ٧٦

الكتلة صفتها المادية ويحولها إلى طاقة، فلم يعد في الكون عنصران متميزان، أحدهما المادة المحسة، والآخر الطاقة غير المحسة بل غدت المادة عبارة عن طاقة مركزة، فإن كتلة الجسم نسبية، وليست ثابتة، فهي تزيد بزيادة السرعة، كما أكدت التجارب التي أجراها علماء الفيزياء الذرية، ولما كانت كتلة الجسم تزداد بازدياد حركته ـ وليست الحركة إلا مظهراً من مظاهر الطاقة ـ فالكتلة المتزايدة في الجسم هي إذن طاقته المتزايدة، وذلك وفقاً للمعادلة التالية:
الطاقة = كتلة × مربع سرعة الضوء: ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية.
كما أن الكتلة = الطاقة × مربع سرعة الضوء.
وإذن فنفس صفة المادية صفة عرضية، وليست ذاتية للمادة المتطورة[١].

على ضوء الحقائق التالية

١ ـ إن المادة الأصلية للكون المادي ترجع إلى حقيقة واحدة مشتركة.
٢ ـ إن خواص المركبات التي تتكون من العناصر ـ هذه الخواص ليست ذاتية بالنسبة إلى المادة الأصلية، وإنما هي عارضة عليها بسبب التركيب، وليست من الطبيعة الأساسية المكونة للمركب.
٣ ـ إن خواص العناصر البسيطة التي يتكون منها العالم المادي أيضاً ليست ذاتية لتلك العناصر وليست نهائية بدليل تحول بعض العناصر إلى بعض آخر كما رأينا.
٤ ـ وأخيراً إن صفة (المادية) ليست ذاتية للمادة المحسوسة لأنها تتحول ـ في نهاية المطاف ـ إلى طاقة.

وإذن فليست لدينا «حقيقة نهائية» هي المادة، وليست لدينا «حقيقة» نهائية هي الطاقة[٢].

النتيجة

إن المادة لا يمكن أن تكون هي العلة النهائية للكون، لأن الكون يحتوي على حشد هائل من المظاهر المتنوعة والأنواع المتباينة، وهي ترجع

(١) يراجع: فلسفتنا ص ٣١٥ ـ ٣٥١ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٨٠ ـ ٨١
(٢) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٨٢

بأجمعها إلى حقيقة واحدة، ولا يمكن للحقيقة الواحدة أن تختلف آثارها وتتباين أفعالها، اذ لو أمكن ذلك لأمكن أن تكون الحقيقة الواحدة متناقضة الظواهر، ولكن هذا مستحيل، لأنه يؤدي إلى القضاء على نتائج العلوم الطبيعية جميعاً، لأن هذه العلوم قائمة على أساس قانون التناسب الذي يقضي بأن الحقيقة الواحدة لها آثار واحدة وثابتة لا تتغير، والتجربة في العلم الطبيعي لا تتناول إلا نماذج ضئيلة من المادة المدروسة، وتعمم نتائج التجربة إلى جميع المادة المدروسة بمقتضى قانون التناسب، فلو فرضنا إمكان تناقض ظواهر الحقيقة الواحدة لما أمكن وضع أي قانون علمي عام وبذلك تنهار العلوم الكلية.

وإذن، فهذا الفرض ـ أن التنوع من خصائص المادة الذاتية ـ فرض مستحيل وإذن من المستحيل أيضاً أن تكون المادة هي العلة النهائية للكون لأن هذا الفرض يؤدي بنا إلى الاستحالة العقلية، كما رأينا، ويصدم حقائق التجربة الواقعية.

وإذن، فإذا كانت المادة غير صالحة لأن تكون علة نهائية، فلا بد أن تكون هذه العلة النهائية فوق المادة وفوق الطبيعة[1].

الماركسية ونشوء الكون

تقول الماركسية: إن الكون ناشىء عن المادة، لأن الأشياء تنتج عن الحركة في المادة وأن حركة المادة ناشئة ذاتياً عن المادة نفسها، لاحتوائها على التناقض في داخلها، وقيام الصراع بين تلك النقائض.

ونقول في جوابها: إن العناصر التي يتألف منها الكون ابتداء من الهيدروجين حتى نهاية سلسلة العناصر، تعود إلى مادة واحدة بسيطة مشتركة بين الجميع.
فنسأل: كيف وجدت العناصر الأساسية للكون؟.

وتجيب الماركسية: أن التناقضات الداخلية في المادة الأساسية ولدت

(١) المصدر السابق ص ٨٣

أبسط العناصر (الهيدروجين) وبالتناقضات الداخلية في الهيدروجين تولد عنصر أرقى منه وأكثر تعقيداً وهو عنصر الهيليوم، وتستمر التناقضات تفعل فعلها في الهيليوم وما يتولد منه، حتى يصل التطور إلى ذروته في العنصر الثاني بعد المئة، النويليوم.

هذا هو الجواب الذي يقدمه الديالكتيك ليفسر به ديناميكية المادة.

ولكن بطلان هذا الجواب يتضح حين نلاحظ أن الهيدروجين لو كان مشتملاً بصورة ذاتية على نقيضه ومتطوراً بسبب ذلك، فلماذا لم تتكامل جميع ذرات الهيدروجين وتتحول إلى هيليوم؟ ولماذا تحول بعضها إلى عنصر الهيليوم وبقي الآخر محتفظاً بخواصه العنصرية بالرغم من تناقضاته الداخلية التي حولت أجزاء منه إلى هيليوم.

إن هذا المثال يمكن تطبيقه على جميع العناصر الاثنين والمئة، وهو يكشف عن بطلان التفسير الماركسي لديناميكية المادة..

وكما اتضح بطلان التفسير المادي على مستوى العناصر، يتضح بطلانه بصورة جلية على مستوى المركبات، ولنأخذ الماء - مثلاً - على ذلك: الماء: مركب من أوكسجين وهيدروجين، ولنفرض وفقاً للتفسير الماركسي أحد هذين العنصرين إثباتاً والآخر نفياً نتج عنهما مركب الماء.

ونتساءل إذا كان هذا التفاعل يتم بصورة ذاتية بين عنصري الأوكسجين والهيدروجين، فلماذا اختصر بقسم معين منهما، وبقيت الأقسام الأخرى متحررة من أسر هذا القانون، فيوجد أوكسجين حر، ويوجد هيدروجين حر، ويوجد ماء؟

إن هذا المثال - يمكن تطبيقه على كل مركب في الكون - يكشف بوضوح عن بطلان التفسير الماركسي لديناميكية المادة.

الحقيقة هي أن المادة ليست ديناميكية أو ليست هي نفسها سبباً ذاتياً لاكتساب خصائصها وتنوعها، فقد عرفتنا النتائج العلمية أن جميع خصائص المادة عرضية.

١ - خصائص المركبات صفات عرضية لها جاءت بسبب تركب العناصر، فخاصة السيلان في الماء عرضية، جاءت من أجل اتحاد عناصره، وإذا

أفرزناها ترجع إلى حالتها الغازية وتنعدم خاصة السيلان.

٢ ـ خصائص العناصر نفسها خصائص عرضية لها، فاليورانيوم ـ مثلاً ـ خصائصه من اختزانه لأنواع أشعته، فإذا فقدها تحول إلى الراديوم الذي يتحول بدوره بعد عدة تحولات إلى رصاص.

٣ ـ خصوصية المادية في المادة البسيطة نفسها صفة عرضية لها، فقد عرفنا أنها تتحول إلى طاقة، وتتكون من الطاقة.

وإذن: فليست المادة ديناميكية بذاتها تولد تفاعلاتها وتنوعاتها وظواهرها بنفسها، لأن كل ذلك (حتى ماديتها) شيء عرضي لها.

وهكذا يظهر بجلاء ووضوح عجز الماركسية عن تفسير نشوء الكون من المادة، وتسقط بصورة مزرية فكرة أن المادة هي العلة الأولى.

وهكذا ننتهي بصورة حتمية إلى الإيمان بالله علّة نهائية للكون.

ويجب أن نوضح هنا أن إيماننا بالله لا يعني أن الأسباب الطبيعية لا معنى لها ولا أهمية لها، وإنما يعني أن التنوع والتطور والظاهر والخفي في الكون يعود إلى أسباب طبيعية خارج المحتوى الذاتي للمادة، وهذه الأسباب تتصاعد متولدة من بعضها حتى تصل في النهاية إلى علة وراء الطبيعة هي الله تعالى[١].

الإلهي والمادي

الماركسيون يؤمنون بخالق لهم هو هذه المادة (الطبيعة) الصماء العمياء الخرساء الجهلاء النكراء الحمقاء.

والإلهيون يؤمنون بالله الخالق السميع البصير العليم الحكيم الرحمن الرحيم القادر المدبر لمخلوقاته.

والماركسيون يؤمنون بوجود خالق، هو المادة (الطبيعة) إلا أنه لا صلة

(١) مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ٨٤ ـ ٨٧

بينها وبين مخلوقاتها الماركسيين إلا القسوة والقهر والغلبة، فإله الماديين لا يمد مخلوقاته بفيضه وعونه، ولا يشعرهم بلطفه ورحمته.

والمؤمن باللّه يستمد منه القوة والعون ويرجو منه السعادة الدنيوية والأخروية، فيجد في نفسه راحة وطمأنينة.

والمؤمن باللّه يعيش في راحة ضمير، والمؤمن بالطبيعة يعيش بشقاوة وتعاسة وقلق نفسي واضطراب ضمير.

والمؤمن باللّه بما وجده فى الانسان والكواكب وبقية المخلوقات والكون وعوالمه من عظيم الصنع وبديع الحكمة، يرى أن ذلك مما يدفع العقول أن تسبّح اللّه الخالق العظيم لهذه المخلوقات والكون كله.

والماركسيون والماديون كلهم في كل يوم يؤمنون بإله ويكفرون به كلما ظهر عالم مادي وأتى بنظرية جديدة تناقض ما قبلها، يؤمنون بما قامت عليه ويكفرون بما عداها، فهم في كل يوم يكفرون بإله ويؤمنون بإله آخر.

ثم إن كلًّا من الماركسي (المادي) والإلهي مؤمن بخالقه، فلماذا سمِّي المؤمن بالله خرافيّاً رجعيّاً، والمؤمن بالطبيعة علميّاً وتقدميّاً؟ هل لأن (المادة) (الطبيعة) لم تقيده بقيد، بل تركته كالحيوان يسرح ويمرح ولا رادع له ولا زاجر؟ وذاك قيّده خالقه ونظم شؤونه؟

والماركسية عاجزة عن تقديم تصور خالق للكون يطمئن إليه العقل، فلجأت إلى الغيب وهو ما تتهم به الدين.

والفرق بين الغيب الذي تلجأ إليه الماركسية والغيب الديني، أن الغيب الماركسي اعتراف بالجهالة فيما يعود إلى خالق الكون، يتناقض مع المواقف الفكرية الجازمة في القضايا المتفرعة عن ذلك. وأما الغيب الديني، فهو أمر تقضي به الضرورة العقلية وهو إذ ذاك واعٍ لوجود اللّه وما يترتب على هذا الاعتقاد من مسائل.

المفاهيم الكونية الثلاثة
المثالي، المادي، الإلهي

١ - المفهوم الفلسفي المثالي عن العالم: يقضي بأنه لا يوجد خارج إدراكنا وتصوراتنا الذهنية أي واقع موضوعي للأشياء الخارجية الكونية، فكل الأمور التي يتكون منها العالم، ما هي إلا صور من تفكيرنا وتصوراتنا في الذهن، وما لا ندركه فهو غير موجود.

٢ - المفهوم الواقعي المادي عن الكون، يقضي بأن العالم الخارجي موجود خارج إدراكنا وتصوراتنا الذهنية، مستقل استقلالاً تامّاً عن وعينا وإدراكنا، لأنه واقع موضوعي مستقل عن الذهن، قائم بنفسه خارج أذهاننا وذواتنا، والحقيقة النهائية في العالم أو الكون هي المادة التجريبية، وهي السبب الأعمق للظواهر الكونية. ولا يوجد وراءها شيء آخر يمكن اعتباره سبباً لوجود الكون واستمراره وبقائه، فالمادية الماركسية ترى أن المادة هي أحد الموجودات، وتنكر وجود اللّه.

٣ - المفهوم الواقعي الإلّهي، مما يقضي - كالمفهوم المادي - بوجود واقع موضوعي للعالم خارج إدراكنا وتصورنا الذهني مستقل استقلالاً تاماً، قائم بنفسه خارج تصوراتنا الذهنية، وإدراكاتنا العقلية، غير أن هذا الواقع الموضوعي الخارجي للعالم والكون ليس ذاتي الوجود، بل هو معلول الوجود لمبدأ غير مادي فوق العقل وفوق الطبيعة معاً، وهو اللّه تبارك وتعالى . وهو ما تنكره الماركسية.

الإلّهي والعلمي

إن الإيمان باللّه تعالى، يعني الاعتقاد بوجود اللّه تعالى وخالقيته للعالم واستمرار بقائه ولا يعني إبطال السببيةوالعلّية للأمور الكونية - كما يرحب به الماديون - فإن الإلّهي لا يعتقد بأن يداً تمتد من المجهول لتحدث ظواهر الطبيعة وتغيراتها، وإنما يعتقد بأن لكل شيء في هذا العالم سبباً على الانسان أن يبحث عنه ليتعرف عليه، وأن جميع الأسباب والعلل تتناهى إلى سبب أعلى منها هو اللّه تعالى.

إن المفهوم الواقعي الإلّهي يعترف بنظام العلّية في الكون، بل الكون ينبثق عن علة أولى هي اللّه، غاية الأمر أن الإلّهي لا يقف عند حد المادة التي ثبت عجزها وإفلاسها، وإنما يستجيب للضرورة العقلية، فيقول بوجود علة أساسية تنتهي إليها جميع العلل والأسباب الكونية، وهي اللّه تعالى.

إذن فالمفهوم الواقعي الإلّهي لا يعارض البحث العلمي واكتشاف العلل والأسباب الكامنة وراء الحوادث والظواهر، بل يفتح جميع الأبواب أمام البحث العلمي في جميع المجهولات سواء ما يرجع للأمور النظرية أو للأمور التجريبية.

ويترتب على ذلك أمر آخر، هو أنه لا فرق بين الإلّهي والمادي بالنسبة للعلم وكشوفه، فكل منهما يعتبر الانسان والطبيعة موضوعا للبحث العلمي، وكل منهما يؤمن بنتائج البحث التجريبي في الطبيعة والانسان وليس في العلم شيء يسمى ماديّاً وآخر يسمى إلّهيّاً.

الفرق بين الإلّهي والمادي هو: ١ - إن المادي يقف عند المادة ولا يتعداها إلى ما وراءها، ولا يؤمن بما وراء التجربة. والإلّهي يرد الكون إلى علة هي اللّه تعالى، ومن ثم يؤمن بوجود مجرد عن المادة خارج عن نطاق التجربة، وليس للمادة ووسائلها أن تناله وإنما ندركه بواسطة عقولنا لا بحواسنا.

٢ - إن المادي لا يرتكز على حقائق إيجابية في مقابل الحقائق الايجابية التي يرتكز عليها الإلّهي وإنما يرتكز على السلب والنفي والإنكار للحقيقة المجردة التي يعتبرها الإلّهي اصلاً للوجود وأساساً له، ولما يترتب على هذه الحقيقة من مسائل إيمانية متفرعة عليها.

والمادية تستند في إنكارها على عدم قيام التجربة الحسية على وجودها، وليس على قيام تجربة حسية على عدمها، ومن البديهي أن أسلوب الماديين هذا في إنكار العلة المجردة ليس أسلوباً علميّاً، لأن موضوع البحث هو العلة المجردة، وليس شيئاً ماديّاً ليكون في متناول التجربة ومن البديهي أن التجربة الحسية لا يمكن أن تعتبر دليلاً على نفي حقيقة خارج حدودها.

وعلى ما تقدم يتضح أنه لا يوجد (مادية علمية) تجريبية وإنما هي مجرد دعوى لا تقوم على أساس من الصحة، لأن المفهوم الفلسفي المادي للعالم الذي تقول به المادية، هو كالمفهوم الفلسفي الإلّهي للعالم، لا يمكن إثباته بالتجربة الحسية، لأن البحث عن علة للعالم غير تجريبي.

فالمادية كالإلّهية في موقف واحد لفهم العالم وإثبات علته، والطريق الوحيد إلى اثبات علة للكون هو العقل وليس التجربة[١].

---

(١) يراجع: فلسفتنا ص ١٩٧ - ٢١٠ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني ص ١٩٥ - ١٩٩.



العلم والحياة والمادة

ما هي الحياة .
الشمس والأرض والخلية الحية وتكوين الحياة .
الماديون والحياة والجراثيم الحية .
الحياة والمادة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

العلم والحياة والمادة
بحث في الحياة والمادة على ضوء العلم

ما هي الحياة:

هل هي شيء له حجم، أو مادة لها وزن، أم خليط حجم ووزن؟ أهي أثير أم هي طاقة؟ فقد اختلف في تعريفها في القديم والحديث بين الفلاسفة والعلماء، ومهما يكن من أمرها فقد اختص اللّه سبحانه بمعرفته بها، حيث يقول عزَّ من قائل: «يسألونك عن الروح قل: الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً».

الحياة تنشأ من الخلية الحية التي لا تكاد تُرى إلا بالمجاهر المكبرة (الميكروسكوبات) وتسمى (الأميبا) وهي تشبه العلقة.

والخلية الحية تحتوي على مادة لزجة، تسمى (برتوبلازم) وأثر الحياة فيها أنها تتحرك، فتأخذ من الجو ثاني أوكسيد الكربون في وجود الشمس وتفصل الايدروجين من الماء فتكون بذلك مركبات كماوية وهي غذاؤها الذي تنمو به.

وهذه الخلية الحية ـ هي عبارة عن حياة معقدة ـ أمكن للعلم أن يكتشف مكوناتها وتراكيبها ويقيس حركتها وتحليل مادتها وطريقة انقسامها. أما سر الحياة وحقيقتها ومتى وجدت الحياة فهو ما وقف العلم والعلماء دونه، يعترفون بأن اللّه هنا هو وحده الذي يعرف سرها وكنهها.

وقد حاول العلماء ملايين المرات خلق (البروتوبلازم) الحي باتحاد مختلف تراكيب الكربون والماء والضوء وتحت مختلف الظروف الطبيعية والكيميائية والصناعية، ولكنهم اخفقوا وازدادوا إيماناً بوجود خالق لهذه الخلية التي تعتبر وحدة الكائن الحي، وأن الخلق لا يمكنهم خلق أنفسهم ـ فضلاً عن خلق غيرهم.

وهذه الخلية الحية التي هي وحدة الحياة تتكاثر فتسبب الكائنات، فهل خُلقت أول خلية أو وُجدت مصادفة؟

الشمس والأرض والخلية الحية وتكوين الحياة

أثبت العلم في مختلف مراحله أن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها. وعند انفصال الأرض عنها لا بد أن تكون على درجة حرارتها، ولنفترض أنها كانت تماثل درجة حرارة الشمس حالياً برغم مرور ملايين السنين التي تعمل على خفض حرارتها فتكون درجة حرارة سطحها ستة آلاف درجة مئوية أما باطنها فدرجة حرارته أربعون مليون درجة، ولما أخذت الغازات التي انفصلت عن الشمس لتكوِّنِ الأرض ـ تبرد تدريجيّاً، كونت سطح الأرض، وتكون الماء حولها الذي كلما لامس القشرة الأرضية المرتفعة الحرارة يطير ثانياً إلى الجو في شكل بخار درجته لا تتصور، فيقابل جوّاً بارداً بين الأرض والشمس، فيعود إلى الأرض في شكل طوفان مدمر. وبتوالي انخفاض الحرارة استقر الماء وتكونت البحار ثم الجبال وعندئذ نفكر في الخلية الحية التي يقولون: إنها نزلت مع الأرض من الشمس.

كيف تعيش خلية حية على درجة حرارة ستة آلاف درجة مئوية مهما كانت مغلفة ومهما اتخذ حيالها من ضروب الوقاية والمحافظة عليها.

إن الانسان باعتباره أرقى الكائنات الحية، درجة حرارته لا تزيد على سبعة وثلاثين درجة إلا في الحالات المرضية التي لا يمكن أن تتجاوز فيها الأربعين. وإذا كان الماء يصبح بخاراً في درجة مئة، فإن درجة ألف كافية لأن تجعل كل شيء مهما كان صلباً على درجة غازية يفقد معها صلابته، فما بالنا بدرجة ستة الاف؟ وما بالنا بدرجة ٤٠ مليون؟[1]

---

(١) الله والعلم الحديث ط٢ ص ١٦٣ - ١٦٤

هل يمكن أن نتصور وجود شيء ـ صلباً ـ على هذه الدرجة؟ وعلى هذا فان العلم والعقل يقولان باستحالة بدء الحياة بخلية حية جاءت من الشمس، ولا بد للكائن أن يكون خلق على الأرض بعد استقرارها بطريقة ما ولغرض ما.

أما خلق الحياة فقد ثبت أنها خُلقت أصلاً مستقلاً، فقد انقضى عهد نظرية التوالد الذاتي التي كانت تقول بنشأة الحياة من الأشياء غير الحية.

وهناك نظرية ثانية تقول: إن العالم قبل خلق هذه السماوات والأرض كان سديماً ـ غازيّاً على شكل دخان ـ لا يوصف بالملاء ولا بالخلاء ثم وجدت هذه السماوات والأرض.

وربما كان منشأ هذا العالم السديمي الغازي المتطاير على شكل دخان أنه كان العالم قبل ذلك ماء ثم استقر ذلك الماء بمشيئة خالقه ثم تحول الكون إلى عالم سديمي لا يوصف بالملاء ولا بالخلاء، ثم كوّن سبحانه هذه السماوات والأرض على هذا الشكل ثم خلق الانسان على الأرض.

وربما يكون لهذه النظرية ما يشير إلى بعض جوانبها في الأخبار والآثار. في روضة الكافي بطريق صحيح عن محمد بن مسلم قال: قال لي ابو جعفر (ع) كان كل شيء ماء وكان العرش على الماء فأمر الله عزَّ وجلَّ الماء فاضطرم ناراً ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد ـ الحديث.

وعلى كل حال فالنظريتان تثبتان وجود الخالق لهذا العالم، إلا أن الخلاف بينهما في كيفية نشوء ابتداء هذا العالم وكيفية وجود الحياة على الأرض، والله العالم بحقيقة الأمر، حيث لا يعلم كنه العالم ولا كيفية نشوئه وكنه الحياة وكيفية نشوئها إلا الخالق تبارك الله رب العالمين.

الماديّون والحياة والجراثيم الحيّة

الماديون يفسرون كل مظاهر الحياة تفسيراً ماديّاً ولا حكم إلا للتجربة العلمية عندهم، فكل ما لا تدركه الحواس من المجردات عن المادة وما هو ليس من نفس المادة باطل.

والماديون يقولون: هذا العالم من صنع الطبيعة ـ مثلاً ـ أتينا بكأس ووضعنا

فيه ماء ثم أحكمنا غلقه فلا تمضي عليه إلا أيام قليلة حتى يمتلىء من الأحياء كالدود.

فهذا دليل محكم عند الماديين على أن المادة الصماء العمياء الجهلاء النكراء الحمقاء، هي التي خلقت هذه العوالم البديعة الصنع، كما خلقت هذه الديدان بالكأس، فما جوابكم أيها المؤمنون بالروح والمجردات عن المادة؟

الجواب

أ - إن الماء نفسه يحمل معه جراثيم حية فإذا أجريت عملية التغليف على الماء في الكأس أتيح لهذه الجراثيم أن تنمو وتظهر بواسطة التفاعل الكيماوي كما هو واضح لدى الكيماويين، وشأن هذه الديدان في الماء شأن كل كائن يحمل معه جراثيم حية كالمنيّ وأمثاله.

ب - إذا جئنا بسائل ذي جراثيم حية ورفعنا درجة حرارته بحيث تموت فيه جميع الجراثيم ثم وضعنا هذا السائل في قنينة وأحكمنا سدها فإنه يستحيل أن تظهر فيه الحياة ولو بقي ملايين السنين[1].

ومثل هذا أيضاً المنيّ الذي يحمل معه ملايين الجراثيم الحية، وكل واحدة منها يوجد فيها انسان، ولكن إذا وقعت في موضع صالح وتفاعل حوين الذكر مع بويضة الأنثى، أو اذا أخذ ولم يترك يتعرض للهواء فانه يمكن التلقيح فيه، وأما اذا تعرض للهواء فتفسد فيه هذه الجراثيم ولا تصلح للتلقيح كما تفسد جراثيم الماء إذا غلق حتى تموت جراثيمها.

ثم ازداد وهن وضعف المادية حينما اخترع المجهر فقد استطاع العلماء بواسطته أن يكشفوا عن وجود الحيوانات الأولية كالهدبيان وعن الحيوانات المنوية أيضاً وهداهم هذا الاكتشاف إلى حقيقة غريبة هي أن الكائنات الحية لا تنشأ إلا من كائنات حية، وأثبتت هذه التجارب أن القول بأن الحياة نشأت من مادة هلامية لا حياة فيها قول واضح البطلان. فالحيّ لا ينشأ الا من حي، ومعنى هذا أن الحياة أزلية قديمة[2].

إن الحياة شيء غير مادي وقد أجريت التجارب الكيماوية على بعض المواد

---

(١) الأضواء العدد الأول السنة الثانية ص ١٨
(٢) الأضواء العدد الأول السنة الثانية

الحية ، فوجد أن المادة يمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية وتركيبها ثانية من هذه العناصر دون أن تفقد من وزنها شيئاً، ولكن تركيبها الثاني يسلبها جوهر الحياة، ويكون منها جسماً مشابهاً لجسمه الأول، إلا أنه ميت تعوزه الحياة.

تستطيع الكيمياء اليوم أن تصنع فاكهة أو بيضة طائر لها من الصفات ما للفاكهة والبيضة الطبيعيتين، ولكن لا حياة فيها.

ولقد أجريت تجارب من قبل بعض العلماء على بيض قنفذ البحر، فأثبتت أنه لو قسمت البيضة إلى قسمين أو ثلاثة أو أربعة، فإن كل قسم لن يكون نصف قنفذ أو ثلثه أو ربعه، بل يكون قنفذ بحرٍ كاملاً، ثم إذا غير نظام الأقسام داخل البيضة، فإن الأعضاء المتطورة فيها تنشأ في أماكنها الطبيعية، ومعنى هذا أن الكائن الحي كلٌ كامل، وكل جزء من أجزائه تكمن فيه القدرة على إنتاج الكل.

أما الآلة فعلى النقيض من ذلك، لا يمكن لجزئها أن ينتج كلاً كاملاً، كما لا يستطيع أن يأخذ وظيفة جزء آخر.

وإذن فالكائن الحي العضوي لا يمكن أن يشبه الآلة، وبذلك تكون الحياة مختلفة في جوهرها تماماً عن المادة[١].

الحياة والمادة
في القرن التاسع عشر والقرن العشرين

والذي ينبغي أن يقال: إن الحياة شيء غير مادي، فالنفس مجردة والمادة كثيفة، والصراع بين الحياة والمادة أضحى في مراحله الأخيرة بتقدم علم النفس وعلم الحياة وما يقدمانه من كشف أسرار الحياة، كما وأنه لم تعد الفلسفة المادية كسالف عهدها لا تؤمن بوجود غير المادي.

إن الصراع قائم بينهما في البيئة الجاهلة وأما في الأوساط العلمية فيجلسان جنباً إلى جنب يبحثان عن سر الوجود الخفي الذي اتفقا على وجوده.

(١) الأضواء السنة الثانية

إن الكشوف الجديدة كتركيب الذرة وإشعاعاتها هدمت قواعد الفلسفة المادية التي كانت معروفة في القرن التاسع عشر.

كانت مادة القرن التاسع عشر صلبة أو سائلة أو بخارية فأصبحت اليوم كهارب موجبة وسالبة ليس لها واحد من تلك الصفات.

وكانت تحتفظ بحجمها وكتلتها مهما تغير شكلها، فأصبح الحجم والكتلة قابلين للزيادة والنقص باختلاف السرعة كما تقول النسبية.

وكانت ذات حجم وكتلة وكثافة فأصبحت طاقة لا حجم لها ولا كتلة ولا كثافة.

وكانت تشغل حيزاً من الفضاء فأصبحت لا تحتاج إلى حيز إذا استحالت إلى طاقة كهربائية أو حرارية.

وكانت لا تتداخل أي لا يجتمع فيها جسمان في حيز واحد فأصبحت تتداخل إذا استحالت إلى شرارات كهربائية أو أشعة كأشعة (إكس).

وكانت لا تفنى فأصبحت قابلة للفناء لتحولها إلى طاقة كما تقول النسبية أيضاً.

وكانت مؤلفة من ذرات لا تقبل الانقسام فأصبحت منقسمة إلى شحنات كهربائية تنقسم إلى ما لا نهاية.

أجل لقد فقدت المادة اليوم كتلتها ووزنها وحجمها وحيزها ومعظم صفاتها الأساسية، فهل بقي لها بعدها شيء؟

الحق أن يقال: بقي لها أهم شيء لولاه لفنيت وأصبحت في غمار العدم، بقي لها جوهرها الذي به وجودها، فان آخر ما وصل إليه علماء الطبيعة اليوم عن طبيعة المادة هو:

ان هذه المادة المحسوسة ليست هي المادة التي كان يقول بها العلم في القرن التاسع عشر، بل إنها اليوم صور لطاقات غير محسوسة.

انها حية لما فيها من التحام وعمليات تحليلية وتركيبية وكهارب ترقص ولا تستقر، إنها تولد وتنمو وتفقد حياتها وتموت.

ان في قلبها (إن صح التعبير) شيئاً غير مادي أي يهبها الصورة والقوة، شيئاً له إرادته وحياته، هذا الشيء هو جوهر الوجود وحقيقته.

هذه هي أحدث النظريات في تركيب الوجود أو أحدث ما وصل إليه علم الطبيعة في خلال الخمسة والعشرين سنة الأخيرة.

ان كل شيء حي، وإن للوجود روحاً عامة تسيطر على كل ذرة من ذراته.

وهنا ينبغي أن نطأطىء إلى وحي القرآن صامتين: « لا يَعزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين » سبأ: آية ـ ٣ « إنها إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكنْ في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها اللّه إن اللّه لطيف خبير » لقمان: آية ـ ٢٥.

ونستمع إلى باب مدينة العلم الإمام علي بن أبي طالب (ع) إذ يشير إلى هذا المعنى فيقول عن اللّه عزّ وجلّ وعلاقته بمخلوقاته وسيطرته عليها:

« مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، داخلٌ في الأشياء غير ملامس، خارج عنها غير مباين »[١].

(١) الأضواء السنة الثانية

الفَـرْق بَين الحيَـاة وَالمَـادّة

الفرق بين الحياة والمادة
أو
الفرق بين النفس المجردة والمادة الكثيفة

لقد مرّ سابقاً معنى الحياة والمادة على ضوء العلم، والذي يهمنا أن نشير إليه هو أنه هل في الإنسان وراء جسمه الذي نحسه باحدى الحواس الخمس روح مجردة عن المادة ومغايرة لها، أو أنه لا شيء وراء الجسم؟ وقد ذهب إلى كل من القولين فريق، ونحن آخذون بعرض الفرق بين الحياة والمادة وإليك بعض ذلك:

١ - إن الجزء في الكائن الحي يمكن أن يكون كلاً كاملاً. فالعود الصغير من الشجرة يكون شجرة كاملة، والجرثومة من مني الحيوان تكون حيواناً كاملاً، والشرخة من النبتة تكون نبتة، ولا يمكن أن يكون هذا في المادة غير الحية.

٢ - إن الحي يكون سلسلة ماهيتها تؤثر في حاضرها، فمن نطفة إلى جنين إلى ولد إلى فتى إلى شاب إلى كهل إلى شيخ هرم، ومعنى هذا أن للحي تاريخاً متصل الحلقات تؤثر سابقتها في لاحقتها، وليس الأمر كذلك في المادة غير الحية.

٣ - للحياة ميل إلى زيادة مقدار الطاقة وذلك بالنمو والتكاثر، أما المادة غير الحية فعلى النقيض من ذلك لأن لها ميلاً إلى الإقلال من مقدار

الطاقة كما هو معروف في علم الديناميكا[1].

٤ ـ من المتسالم عليه ولم ينكره أحد في القديم ولا في الحديث، أن الإنسان يشعر ويدرك ويفكر ويعرف أنه يعرف ويغضب ويرضى ويرجو ويخاف ويحب ويكره ويصدق ويكذب ويحكم بأن هذا حق وذاك باطل وهذا خير وذاك شر وهذا جميل وذاك قبيح ويدعم حكمه بالحجة والمنطق.

وهذا من خصائص الانسان وحده دون غيره من الكائنات الحية وغير الحية. وهذا لا يحتاج الى جدل وبرهان، بل الشاهد والعيان والبداهة والوجدان، وهذه الصفات في الانسان أثر لمعنى قائم بذاته مجرد عن المادة تخالف حقيقته حقيقتها وحكمه حكمها، وإن كانت مرتبطة به ارتباط تدبير وإشراف.

وأجاب الماديون: بأن هذه الصفات متسالم على وجودها في الإنسان، غير أن الإدراك والشعور وغيرهما من هذه الصفات في الإنسان جاءت نتيجة لتناسب عناصره وتركيب أعضائه، فالمخ يفرز الأفكار تماماً كما تفرز المعدة الفضلات والكبد الصفراء، وعليه تكون النفس من توابع البدن توجد بوجوده وتفنى بفنائه وتفسد بفساده. وأُجيبوا:

أ ـ بأنه لو صح رأيكم لتساوى جميع أفراد الانسان من سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى أينشتين[2] برعاة الابل والغنم والحمير في جزر البحار وأطراف القفار، ولاستحال على الإنسان أن يرى شيئاً ثم يعدل عنه، ما دام المصدر واحداً لم يطرأ عليه أي تبديل أو تغيير.

ب ـ يلزم على قول الماديين أن يكون الانسان والحيوان من فصيلة واحدة يسلك طريقاً واحداً منذ يومه الأول، إلى آخر حياته، لا تطور ولا حضارة ولا شيء سوى الجمود والركود.

ج ـ وإذا كانت هذه الصفات تحصل بمجرد تركيب الجسم على هيئة خاصة، فلماذا عجزت أنا وأنت عما يفعله المخترعون وعباقرة العلم ـ مع أن الاجسام واحدة في الجميع ـ من أسباب التحليق في الجو إلى ما لا تبلغه الطيور، مع أنه بدون أجنحة ويعوم على الماء أو قطع البحار وهو حيوان بري لا مائي، وحفر الأنفاق وخرق الأرض وهو بدون مخالب، وقتله ملايين الأحياء مع أنه لا ينفث السموم كالافاعي؟.

---

(١) يراجع الأضواء السنة الثانية

(٢) وصّى أينشتين أن يحلل دماغه بعد الموت في المختبرات العلمية ولدى البحث والتحليل لم يجد العلماء أي فرق بينه وبين سائر الأدمغة.

د - جواب هؤلاء طبعاً - وأمثالهم، كل شيء عند الماديين سببه المادة لأنها هي الله الخالق عندهم لجميع الظواهر، فالأفكار والعبقرية والأريحية والوفاء والنصيحة والإيمان والعقيدة، والدين والأخلاق، ترجع إلى المادة، أما الروح فحديث خرافة، لا يصدقه إلا البسطاء.

وليس بغريب على من أنكر خالق النفس أن ينكر النفس [1] إن آثارها ليست بشيء بالقياس إلى آثاره تبارك وتعالى، ومع ذلك فقد عمي عنها الماديون، فبالأحرى أن لا يروا آثار النفس، وصدق الله العظيم «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون» [2] وفي الآية دلالة واضحة على أن نسيان النفس منوط بنسيان خالقها ومعرفتها بمعرفته.

٥ - ان الادراك للحرارة والبرودة والألم من خواص النفس والجسم واسطة وأنه تماماً كأدوات البناء بالقياس إلى الباني، وإلا لو كان الادراك والاحساس للجسم وحده لكان كل جسم يحس ويدرك حتى الحجر.

٦ - إن للجسم خصائص أظهرها إذا قبل شكلاً من الأشكال كالمثلث فلا يقبل غيره من التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول وإذا قبل صورة من نقش أو رسم فلا يقبل أخرى حتى تزول ليوضع محلها آخر.

أما النفس فتتراكم فيها الانطباعات المختلفة والصور المتنوعة من المحسوسات والمعقولات دون أن تمحى الأولى، بل تبقى كاملة، وتزداد قوة بالثانية، لأن الانسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً، وهذه صفة مضادة لصفات الأجسام التي يلحقها الفتور الكامل كلما تكدست عليها الأثقال.

٧ - إن الجسم تؤثر فيه المؤثرات الخارجية كالحرارة والبرودة - مثلاً - فيحترّ عند الحرارة ويبرد عند البرودة، والنفس لا تتأثر بهذين وأمثالهما، فمثلاً إذا تصورت الحرارة في ذهنك فلا يصير الذهن حاراً ولا النفس وإذا تصورت البرودة فلا يصير الذهن بارداً.

---

(١) إن كثيرين من الأوائل كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وفي الوقت نفسه يؤمنون بأن الفكر جوهر مادي، وقد ذهب إليه جماعة من المعتزلة وكثير من المتكلمين كما نقل ذلك في كتاب المعاد لصدر المتألهين الشيرازي.

وقال الحنابلة والكرامية وكثير من أهل الحديث: كل ما ليس جسماً ولا يدرك باحدى الحواس الخمس فهو لا شيء، لأن القدماء كانوا لا يرون الملازمة بين إنكار الخالق وإنكار المجردات عقولاً كانت أو نفوسا ولكن الماديين في هذا العصر ينطلقون من مادية النفس إلى إنكار الخالق وكلامهم صريح بذلك.

(٢) الحشر آية - ١٩

٨ ـ إن كل انسان عالماً كان أو جاهلاً كبيراً أو صغيراً حين يعبر عن نفسه بأنا، ويخاطب غيره بأنت لا يريد هذا الجسم المؤلف من هذه الجوارح والأعضاء والدم، وإنما يقصد معنى وراء هذه الأعضاء بدليل أنه لو قطعت بعض جوارحه أو أعضائه كيديه ورجليه يقول: انا الذي فعلوا بي ما فعلوا، ولو كانت النفس هي الأعضاء بعينها لكان قوله هذا كذباً أو مجازاً.

٩ ـ إن الشعور والادراك، لو كان من لوازم الجسم خاصة من حيث هو جسم لوجب أن يكون كل جسم يحس ويدرك حتى الجمادات. وإذا أجاب المادي: إن الإدراك من لوازم تنظيم الجسم على الهيئة الخاصة، لا من لوازم الجسم كيف ما اتفق وعلى أي صورة وجد. وجوابه لو صح هذا لاستطاع العلماء أن يصنعوا في معاملهم إنساناً له ما للإنسان من الخصائص والصفات الجسمانية.

ولكن أنّى لهم أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له فضلاً عن أن يخلقوا إنساناً، والله سبحانه أشار إلى عجز الانسان مهما تطور وتقدم في المعرفة ووسائل التصور بقوله: «إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب».

بل هم أعجز عن أن يعرفوا حقيقة الحياة أو الروح بكل ما لديهم من العلم ووسائله المادية فضلاً عن خلقها وقد أوضح سبحانه هذا الأمر حيث يقول عزَّ من قائل: «يسألونك عن الروح قل: الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

هذا مع ان الإنسان كان قبل لحظة موته يشعر ويدرك ويفكر، والآن أصبح جماداً بلا إحساس، مع أن أعضاءه هي لم يطرأ عليها تبديل أو تعديل أو تغيير ما، ولو قليلاً.

١٠ ـ إن الإنسان قد يذهل أحياناً عن أعضائه، وينساها بالمرة ولكنه لا يذهل أبداً عن نفسه. ولو كانت النفس هي الأعضاء بالذات لكان الانسان ذاهلاً عن نفسه وملتفتاً إليها في آن واحد.

١١ ـ إننا ندرك ـ مثلاً ـ أن الأرض تدور حول الشمس، وهذا الادراك لم يأت عن طريق البصر ولا الشم ولا اللمس، ولا المخ بما هو مركب من ذرات وجزئيات، لأن الذرات بما هي لا تدرك شيئاً، فلا صلة إذن للحواس بالادراك إلا في معرفة الجزئيات المحسوسة، كاللون والصوت

والطعم والرائحة والحرارة والبرودة لأنها تحس، فتحتاج معرفتها إلى الحواس أما الامور التي لا تحس فهي في غنى عن الحواس للاكتفاء بادراكها عن طريق العقل.

١٢ ـ إن الانسان يدرك الغايات ويرجع المسببات إلى اسبابها ويضع الأمور في نصابها ويدرك مفاهيم كلية عامة لا وجود لها إلا في الذهن ـ لأن كل ما يوجد خارجاً يتشخص به ولا يصدق على كثيرين فيصبح جزئياً لا كلياً ـ كالجنس والنوع والفصل، وما إليها من المعاني المجردة التي لا يشار إليها بالحواس ولا تنقسم إلى الأبعاد الثلاثة، ومعلوم أن المادة ـ الحواس ـ لا تدرك غير المادة.

قال صدر المتألهين: «لا يجوز أن تكون قوة جسمية ولا صورة عقلية، فإن كل قوة تكون ذاتها جسمانية تكون أفعالهاوانفعالها أيضاً جسمانية»

وقال رامون أولا: «إن التأثير الارادي والتلقين العقلي، لا يمكن أن يعزى إلى المادة الجسمية ولا إلى التفاعلات الكيميائية ولا إلى الحركات الميكانيكية، بل إلى الفكرة[١]».

وربما يجاب عن المادي: بأن الفكر لا يوجد بدون المخ، كما لا توجد الجاذبية بدون الجسم الثقيل، وعليه تكون الفكرة من لوازم الجسم وعوارضه كلّية كانت أو جزئية، تماماً كالجاذبية للأجسام كما وأنه لا يتيسر للنفس العمل بدون البدن.

وجوابه:

أ ـ أن تشبيه شيء بشيء يستدعي وجود الشبه بينهما، وإلا كان قياساً مع الفارق، وأي شبه بين الإدراك وبين الجاذبية العمياء التي لا شعور لها ولا حياة

وهذا شأن الماديين والجاحدين يقيسون الضد على ضده والنقيض على نقيضه، ويشبهون العقل الذي اكتشف الجاذبية بالجاذبية، والروح التي تحرك الأوتار بالأنغام التي تولدت منها.

إن الخلاف بين الماديين وغيرهم حصل في أن الإدراك: هل هو يفسر بالمادة أو

(١) كتاب وحي الموت لقراءة ص ٦٠

بغيرهم فقولهم: بأنه كالجاذبية عين الدعوى فيحتاج الى دليل يثبته. وما أشبه دعواهم هذه بقول من قال: إن المريخ مسامت للقمر، لأن كلا منهما في السماء، ولو تتبع أشياع الماديين أدلة ساداتهم وأئمتهم لألفوها لا تختلف عن هذا المنطق في شيء.

ب ـ أن هذا خطأ محض، لأن افتقارها إلى المادة إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن عملها مشروط بوجود الآلات المادية، لأن حقيقتها هي المادة، وإلا كانت كالمنشار حقيقة النجارة وحقيقة الباني أدوات البناء، وحقيقة الفلاح آلات الفلاحة، ولا يقول هذا إلا المجانين.

١٣ ـ إن الإنسان يعرف ذاته ويعرف غيره ويعرف أنه يعرف وأن معرفته تتسع للمتناقضات والمنافيات في وقت واحد، فهو يدرك المتضادين ويحكم بينهما بالتضاد، ويدرك المستحيلات، ومعرفة التضاد والاستحالة لا يمكن أن تعزى إلى الجسم بما هو مادي لا يقبل إلا المادة، إذن، لا بد أن يكون وراء هذا الجسم جوهر روحاني لا يشبه المادة.

١٤ ـ جاء في كلمات الإمام الصادق (ع): إن الطفل يكون يوم ولادته أشبه بقطعة لحم لا تدله الحواس على شيء يسمع أو يبصر أو يذوق أو يشم ومع ذلك فهو يطلب اللبن، ويضحك إذا رآه ويبكي إذا جاع، ولو لم تكن فيه قوة وراء الحواس والأعضاء تهيج به إلى طلب اللبن والضحك والبكاء لكان كسائر الجمادات.

وقول الصادق (ع) ينطبق مع قوله تعالى: «هو الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون».

وقال الفارابي في رسالة (التعليقات): إن نفس الطفل مستعدة لأن تحصل له الأوائل والمبادىء وهي تحصل له من غير استعانة بالحواس، وليس من شك أن حصول هذه الأوائل لو كانت من لوازم الحواس لما وجدت في مثل هذه الحال، لأن لازم الشيء لا ينفك عنه.

١٥ ـ قال أفلاطون: إن المادة ساكنة بطبعها، فلا بد لها من مبدأ يحركها، وهذا المبدأ هو النفس، ولا يمكن أن يقال: إن النفس عبارة عن توافق الأخلاط أو العناصر المؤلفة من البدن، لأن التوافق نتيجة التركيب، والنفس تدبر البدن وتديره بالإرادة فلا بد أن تكون شيئاً متمايزاً عنه.

وقد تبنّى ديكارت هذا الدليل، حيث عرف الإنسان بأنه جوهر مفكر، وأن له نفساً تامة قائمة بذاتها[1].

هذه خلاصة الفرق بين الحياة والمادة.

(١) الطبيعة وما بعد الطبيعة يوسف كرم ص ٥٢



للكون نظام واحد .
مِنَ الخالق الواحد .
علاقة الانسان والنبات .
علاقة الأرض والشمس والقمر .
علاقة النجوم والكواكب الأخرى .

الكون نظام واحد من الخالق الواحد

إن الصورة التي سنعرضها عن خلق عالمنا الشمسي والكواكب الأخرى وخلق الانسان والحيوان والنبات والهواء والماء، ليتبصر الانسان ويتدبر ويستدل من خلْقه وخلقها ووجوده ووجودها على وجود الخالق المبدع الحكيم تبارك وتعالى، وليؤمن به خالقاً له وللكون وأنه تعالى واحد لا شريك له.

ومن ثم يؤمن بأن الانسان خلقه الله وكرّمه وفضله على مخلوقاته لم يُخلق عبثاً ولم يُترك هملاً كالبهائم لا هم لها إلا نثيلها ومعلفها.

وحيث إن الانسان مسؤول أمام الله سبحانه، فكان من لطف الله تعالى على عباده أن بعث منهم أنبياء ومرسلين وأنزل عليهم الكتب ليبينوا لعباده تعاليمه وأحكامه، وما يريده منهم وما يكرهه لهم، وعليهم أن يؤمنوا به وبأنبيائه ورسله وملائكته وكتبه، وأن ما جاء به أنبياء الله ورسله من عند الله حق لا ريب فيه.

فنحن نشاهد بعض هذه الموجودات في العالم كالأرض والشمس والقمر والنجوم والكائنات الحية وهي تتحرك وفق نظام عظيم وترابط بين الموجودات من حيث النظام والسير حيث قدّر لها الله سيرها مما يدل أن نظامها واحد.

قال تعالى: «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحسابَ ما خلق الله ذلك إلا بالحق» (يونس آية ـ ٥).

ويدل على أن منظمها واحد إذ لو كان أكثر من واحد لوقع الاختلاف. قال تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» (الأنبياء آية - ٢٢).

وقوله تعالى: «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لَذَهب كل إله بما خلق، ولَعَلا بعضُهم على بعض، سبحان الله عما يصفون» (المؤمنون آية - ٩١).

عندما يمعن الإنسان النظر ويجيل الفكر يرى أن بين المخلوقات الكونية علاقة وثيقة وترابطاً كبيراً وأنها تسير وفق نظام واحد، فهناك علاقة بين الإنسان والنبات والشمس والقمر وبين الأرض والشمس وبين النجوم والكواكب السيارة، وبيان ذلك:

١ - علاقة الإنسان والنبات:

إن الإنسان يشترك مع النبات في تنفس الهواء ولكن لا يحدث بين الإنسان والنبات نزاع وخصام ويعيش الإنسان مع جاره النبات في صداقة وعلاقة مشتركة، وضع الله نظاماً لطيفاً للاستفادة من الهواء، فالإنسان يأخذ من الهواء الأوكسجين، ويطرح ثاني أوكسيد الكربون، أما النبات فبالعكس يطرح الأوكسجين ويأخذ ثاني أوكسيد الكربون، ولو لم يكن هذا التبادل قائماً بين الانسان والنبات لنفد جميع الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون، الموجود في الهواء، وفي ذلك القضاء على حياة الانسان والأحياء الأخرى معاً.

ومن وجود هذا الترابط وهذه العلاقة بين الانسان وصديقه النبات، نعلم أن الذي خلق الانسان وخلق النبات ووضع هذا النظام اللطيف القائم على التنسيق بين علاقة الانسان والنبات وأن كلاً منهما يستفيد من صاحبه، هو الله الخالق الواحد سبحانه وتعالى.

٢ - علاقة الأرض والشمس والقمر:

إن الأرض تدور والشمس تجري ولكل منهما نظام خاص، ولكن توجد بينهما علاقة وصداقة لذلك يحدث الليل والنهار، وتوجد فصول السنة الأربعة ويعرف عدد الأيام والأشهر والسنين.

والقمر يأخذ من أشعة الشمس ليعكسها في الليل المظلم على دنيانا فيملأها نوراً وجمالاً وبهاء وضياء.

والشمس تزود الأرض بالضوء والحرارة الكافية لحاجتها لا زائدة ولا ناقصة، فإذا زادت أشعة الشمس وحرارتها أو نقصت ولو جزءاً قليلاً، أصبحت الأرض غير صالحة ليعيش الأحياء عليها.

قال تعالى: «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق» (سورة يونس ـ آية ـ ٥).

إن الله سبحانه خلق الأرض والشمس وجعل المسافة والبعد بينهما بمقدار معين يساعد الإنسان والأحياء الأخرى على الحياة على الأرض، فلو اقتربت الشمس من الأرض قليلاً لأحرقتها وما فيها، ولو ابتعدت أكثر من بعدها الحالي لأصبحت الأرض قطعة من جليد لا يمكن العيش عليها.

ومن هذا الترابط والعلاقة بين الشمس والأرض ومن النظام الواحد بينهما نعلم أن الذي خلقهما هو الله الواحد لا شريك له.

٣ ـ علاقة النجوم والكواكب:

وهناك نجوم وكواكب تسير بسرعة عجيبة وبنظام بديع، ولولا ذلك النظام الدقيق بينها لاصطدم بعضها ببعض وسببت الكارثة الكونية التي لا تبقي ولا تذر.

فلو نظرنا إلى ساحة واسعة فيها عدد كبير من السيارات والعربات والدراجات، والمارة تدور على الساحة وتسير باتجاهات مختلفة، فماذا يا ترى يحدث؟ ثم لو أن هذه المتنقلات خالفت نظام السير، بالطبع كانت تصطدم ببعضها البعض وتتحطم وتصبح ركاماً ويهلك من فيها ويدمر ما فيها، وكذلك لا يمكن لعدد كبير من الطائرات أن تسير في الجو بلا نظام ملاحة جوية أو خارطة للسير.

وهكذا شأن الأرض والشمس والنجوم، كلها تسير وتتحرك، ولكن لها نظام واحد في سيرها يجعلها لا تصطدم ولا يحتك بعضها بالآخر.

إن وجود هذا النظام الواحد بين الكائنات دليل على أن الذي خلقها جميعاً هو إله وخالق واحد، لا شريك له وهو الله سبحانه وتعالى.



الإنسان .

الحيوان .

النبات .

الهواء .

الماء .

الشمس .

القمر .

الأرض .

الليل والنهار .

نجوم وكواكب أخرى .



الانسـان

هل يستطيع الإنسان أن يعرف حقيقة اللّه سبحانه إذا فكر في خلق الإنسان ؟

كلاّ ، إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف حقيقة نفسه التي بها يكون إنساناً وبدونها ليس شيئاً ، فكيف يستطيع أن يدرك كنه الخالق وحقيقته . وقد جاء في الحديث الشريف :
« مَن عرف نفسه فقد عرف ربه »

فلا يمكن لنا ولا لوسائلنا الفكرية والمادية التي لم تكن إلا بعض مخلوقاته أو ذرّة صغيرة تتطاير في وجوده اللامحدود أن تدرك حقيقته وكنهه .

نعم ندركه بجهاز استودعه هو فينا بقدرته ، جهاز يخزن طاقات غير مادية ، طاقات يجهل العلم وطاقاته مادتها وحقيقتها كالعقل والبصيرة . وحسبنا أن نتحرر من المادة وأغلالها المرهقة لنردد مع نَشيد الأزل ، مع القرآن الكريم : « إنَّ في خلق السموات والأرض واختـلاف الليـل والنهـار لآيات لأولي الألباب » .[1] آل عمران .

ولقد تمكن البشر أن يصنعوا كثيراً من المكائن والآلات ووسائل السرعة التي تشق طريقها في البر والبحر والجو .

ولكن لا يستطيع العلماء الذين اخترعوا هذه المكائن ووسائل النقل السريعة

(١) فقرة من كتابنا « الايمان والعقل » ص ١١٩ ـ ١٢٠

والأجهزة الحديثة أن يقيموا معملاً لصناعة الإنسان.

كلا: لأنهم مهما بلغوا من العلم والفهم والتقنية الحديثة لا يقدرون أن يصنعوا عضواً بسيطاً من أعضاء الانسان كالإصبع ولا يقدرون أن يخلقوا عيناً تبصر أو أذناً تسمع أو لساناً ينطق.

نعم قد يصنع العلماء أعضاء للإنسان تحل محل الأعضاء الأصلية كالقلب واليد والرجل غير أن هذه الأعضاء اصطناعية لا تحل فيها الحياة، كما أن عمليات زرع الأعضاء الحية ونقلها من إنسان إلى آخر، لا تعتبر خلقاً وتكويناً، وإنما هي عملية نقل عضو من مخلوق إلى مخلوق آخر.

وهل بإمكان الذين يصنعون تماثيل لإنسان أو حيوان أو نبات من الحجر أو الخشب أو أي مادة أخرى أن يعطوا الروح لهذه التماثيل وينفخوا فيها الحياة، ويجعلوها تنطق وتسمع وترى؟

كلا: إن البشر عاجزون عن كل ذلك وما توصل إليه العلم اليوم من وضع النطفة في قارورة وتنميتها لتكون جنيناً ثم طفلا، إن هذه، كعملية تفقيس البيض الزراعي وجعله في مكان ملائم له، فليس هذا خلقاً، لأن الحياة الموجودة في النطفة وفي البيضة من الله وليست من الطبيب، وإلا فهل يستطيع الطبيب أن يخلق إنساناً من غير نطفة حية، ودجاجة من غير بيضة حية؟

كلّا، لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى.

وليست عملية تنمية النطفة في القارورة لتكون جنيناً وطفلاً، إلا كإناءٍ فيه ماء فأحكم غلقه، فتعفَّن ونمت الحيوانات الموجودة داخله، والتي لا ترى بالعين المجرَّدة، وإنما ترى بواسطة المجهر فتحولت بعد ذلك إلى ديدان.

أيقال ـ بلغة العلم ـ لمن فعل هذا: إنه خلق ديدانا؟ أم أنه هيأ المناخ للحيوانات الصغيرة غير المرئية لتنمو وتكبر فتكون بعد ذلك ديداناً؟

سبحان الله وتعالى عما يصفون، فان البشر كل البشر عاجزون عن كل ذلك، فمن الذي خلق الانسان وأعطاه الروح والعقل والسمع والبصر والأفئدة وجهز جسمه بكل هذه الأعضاء؟ لا شك ولا ريب أن الله سبحانه هو الذي خلق كل ذلك بعلمه وقدرته، لأنه سبحانه هو الحي وهو العالم وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: «قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» الملك آية ـ ٢٣.

«أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (النحل آية ـ ٦٤).

الحيوان

خلق الله سبحانه الحيوان وسخره للانسان، ليستفيد من لحوم الحيوانات وشعرها وصوفها ووبرها وجلودها وروثها وركوبها وحملها وفي الأسفار وغير ذلك.

وقد خلق الله سبحانه الحيوان وأخضعه للانسان منذ أقدم العصور، لذا ترى صبيّاً واحداً من بني الانسان يستطيع أن يسوق أمامه سرباً من الابل أو البقر دون أن يؤذيه أو يعصي أمره مع قوة تلك الحيوانات وضخامة أجسامها.

قال تعالى: «أو لم يروا أنَّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون، وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون» (يونس آية ـ ٧١ ـ ٧٣).

النبات

وخلق الله سبحانه النباتات غذاء للانسان وللحيوان، فالانسان يأكل الحبوب والفواكه والخضر المختلفة في اللون والطعم والرائحة، في كل قسم منها لذة خاصة بها ورائحة طيبة لا توجد في القسم الآخر.

خذ التفاح والرمان والليمون ـ مثلاً ـ وغيرها من الأنواع الكثيرة من الفاكهة وتذوقْها وشم رائحتها لتعرف الفرق بينها في الطعم والرائحة والتركيب.

واجمع عدداً من الحبوب كالحنطة والشعير والأرز والذرة، وانظر إليها بدقة، فسترى الفرق بينها في الشكل والتركيب وتجد في كل قسم من هذه الحبوب طعماً خاصاً، وهو يصلح لنوع خاص من الغذاء.

واذهب إلى حديقة فيها كثير من الأزهار، ثم انظر إليها وشمها، لترى الفرق بينها في العطر والمنظر والجمال.

إن جميع هذه النباتات تغرس وتزرع في الجبال وفي أرض واحدة وتسقى بماء واحد، فمن أتاها بذلك التنويع والاختلاف؟

هل الفلاح؟ كلا.

إن الفلاح يقوم بالحرث أو الغرس فقط، بل إن جميع البشر لا يستطيعون أن يخلقوا تفاحة واحدة، وإنما الذي خلقها هو الله سبحانه.

قال تعالى: «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً، فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون.» (يس آية - ٣٣ - ٣٥).

وقال تعالى: «أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون.» (النمل آية - ٦٠).

الهـــواء

وخلق الله سبحانه الهواء، وهو ضروري لحياتنا.

إن الهواء الذي نستنشقه مركب من الأوكسجين والنتروجين وثاني أوكسيد الكاربون وبعض الغازات الأخرى ويحتوي كذلك على بخار الماء.

وإن وجود هذه العناصر جميعاً ضروري لحياة الانسان والحيوان والنبات فلو انعدم الأوكسجين أو النتروجين من الهواء، لانتهت حياة الكائنات الحية بأجمعها.

وإن عناصر الهواء هذه توجد بنسب معينة، فلو زادت تلك النِّسب أو نقصت سببت الهلاك لجميع الأحياء.

إن الأوكسجين - مثلاً - يؤلف خمس الهواء، وهذه النسبة إذا زادت قليلاً

أحدثت حريقاً كبيراً في العالم، لا تستطيع جميع فرق الإطفاء إخماده، وإذا انقطعت سببت الاختناق والموت لجميع الأحياء في العالم.

ونستطيع أن نعلم أهمية الهواء لحياتنا إذا علمنا بأننا لا نستطيع أن نعيش في هذه الدنيا لو حبس عنا الهواء لحظة واحدة.

لقد اكتشف العلماء عناصر الهواء، ولكن هل يستطيعون أن يخلقوا شيئاً من تلك العناصر التي يتكون منها الهواء؟ كلاّ. وإنما الخالق هو الله سبحانه.

قال تعالى: «وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يَديِ رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحييَ به بلدة ميتاً ونُسقيَه مما خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً.» (الفرقان ـ آية ٤٨ ـ ٤٩).

الماء

وخلق الله سبحانه الماء وجعل حياتنا وحياة الحيوان والنبات تتوقف على الماء، فالماء ضروري بوجود الكائنات الحية وبقائها، لا يمكنها أن تحيا وتعيش بغير الماء، فنحن نشرب الماء عندما نشعر بالحاجة إليه، ولا نستطيع تحمّل العطش طويلاً، ولا يستطيع جسم الانسان أن يقوم بأعماله ووظائفه بلا ماء، بل النصف الأكبر من وزنه يتألف من السوائل، فاذا قلّت هذه النسبة في الجسم فان حياة الانسان تتعرض للخطر والهلاك.

فالماء يكوّن نسبة كبيرة من الدم الذي يجري في أجسامنا، وعليه تتوقف حياتنا وحركتنا. والطعام الذي نأكله لا يمكن مضغه وإرساله للمعدة بلا ماء ولا يتم هناك هضمه إلا بعد أن يذوب في العصارات التي قسمُها الأكبر من الماء.

ونحن نستعمل الماء في أعمالنا وشؤوننا اليومية. نستعمله في الطهو والغسل والتنظيف وفي تشغيل المعامل والصناعات وتُسقى به مزارعنا وحيواناتنا التي تموت لو انقطع عنها الماء، كما نتَّخذ منه طرقاً للمواصلات، فتشق السفن والبواخر عُبابه وأمواجه وتنقلنا من بلد إلى بلد آخر.

وهل يستطيع الناس أن يخلقوا قليلاً من الماء؟ كلاّ. أليس الله هو الخالق لذلك؟

قال تعالى: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين.» (سورة الملك ـ آية ـ ٣٠).

وقال تعالى: «أفرأيتم الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المُنْزِلون؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون.» (الواقعة آية ٦٨ ـ ٧٠)

الشمس

الشمس، هي كرة هائلة من الغازات الملتهبة، وقطرها يزيد عن مليون وثلث مليون كيلومتر، ومحيطها أكبر من محيط الأرض ب ٣٢٥ مرة ويبلغ ثقلها ٣٣٢ ألف ضعف ثقل الأرض، وحرارة سطحها نحو ٦٠٠٠ درجة سنتيجراد، وهذا السطح تندلع منه ألسنة اللهب إلى ارتفاع نصف مليون كيلومتر.

والشمس تنثر في الفضاء باستمرار طاقات قدرها ١٦٧٤٠٠ حصان من كل متر مربع ولا يصل للأرض منها سوى جزء من مليون جزء، وهي لا تعتبر إلا نجمة، ولكنها ليست في عداد النجوم الكبرى، وسطحها به عواصف وزوابع كهربائية ومغناطيسية شديدة.

والشمس لو كانت أعظم جرماً وأقرب مكاناً لهلكت أنواع النبات والحيوان والانسان من شدة الحر، وكذلك لو كانت أصغر أو أبعد لهلكت من شدة البرد.

وتظهر العناية في أنه لولا فلكها المائل لما كان هنا صيف ولا شتاء ولا ربيع ولا خريف، وهذه الأزمان ضرورية في وجود أنواع النبات والحيوان والانسان.

ولولا الحركة اليومية للأرض لم يكن ليل ولا نهار، وكانت تكون نصف السنة نهاراً والنصف الآخر ليلاً، وكانت الأشياء تهلك من الحر في النهار ومن البرد في الليل.

والمشكلة التي حيَّرت العلماء هي أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع بنفس المقدار من الحرارة منذ ملايين السنين، فان كانت

الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تفنَ مادتها على توالي العصور؟

فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهده ونألفه، وإلا لكفاها ستة آلاف سنة لتحترق وتنفد حرارتها، وقد زعم البعض أن النيازك والشهب التي تتساقط على سطحها تعوض الحرارة التي تنفذ منها بطريق الاشعاع.

هذه الشمس التي ما زالت أسرارها في الخفاء، والتي ما زالت موضع حدس وتخمين، هذه الشمس التي ما زالت حتى اليوم إله المجوس في الهند، هذه الشمس التي ليست هي مصدر نورنا ونارنا فقط، بل محور نظامنا السيار ومصدر حياتنا أيضاً، هذه الشمس التي كل ما يكشف عنها يزيدها غموضاً، ولم تزح يد العلم بعد النقاب عن كل ما يجب أن نعلمه عن الشمس، هذه الشمس التي تفقد أربعة ملايين طن من وزنها في الثانية من احتراقها ولم تزل تجدد وزنها وحجمها.

هذه الشمس هي آية من آيات الله الكونية، وإن هي إلا آية صغيرة تزخر السماء بملايين من النجوم أضخم منها حجماً وأكبر سرعة وتألقاً.

يقرر العلم أن سرعة الضوء المرسلة من الشمس هي ١٨٦ ألف ميل في الثانية.

ومن النجوم ما يرسل ضوءه ويصل إلينا في دقائق.

ومن النجوم ما يصل ضوءه في شهور.

ومن النجوم ما لم يصل ضوءه بعد، وقد أرسل ضوءه من ملايين السنين.

قال تعالى: والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدَّرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون» (يس آية ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠).

القمر

القمر أقرب الأجرام السماوية للأرض وأقل حجماً منها، يدور حول الأرض مرة كل شهر.

والقمر أثره بيّن في تكوين الأمطار وإنضاج الفواكه والأثمار، ولو كان أعظم أو أصغر أو أبعد أو أقرب أو لم يكن نوره مستفاداً من الشمس لما كان هذا الفعل.

وأيضاً لو لم يكن له فلَك مائل لما كان يفعل أفعالاً مختلفة في أزمان مختلفة ولذلك تسخن به الليالي في زمن البرد، وتبرد به في زمن الحر، أما سخونتها في زمن البرد فلأن وضعه منا يكون كوضع الشمس في زمن الحر، بأن يكون أقرب إلى سمت رؤوسنا، إذ كان فَلَكه أكثر ميلاً، وأما سخونته في زمن الحر فيكون الأمر بالعكس، إذ كان أبداً إنما يظهر في الجهة المقابلة للشمس.

ولو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض في آن واحد، ولو لم يكن يقطع في دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر نحو ٤٩ دقيقة لما كان يتنقل في منازله المختلفة، لنرى وجوهه المتغيرة ولما كان يتم دورته في شهر واحد ليستأنف شهراً جديداً، نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب.

ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هي أو أكثر، أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله، بل ربما زال القمر كله، لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبه فأصبح المد على الأرض طاغياً يغمر اليابسة كلها، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها، ولو بعُد عن الأرض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب، وإن زاد البعد جذب القمر كوكبٌ آخر إليه وحرمنا من نعمه، ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبه ولو صغر لقلّت، وجاذبية القمر مع جاذبية الشمس والتكوين الجغرافي لأجزاء الأرض البرية والبحرية، تسبب المد والجزر.

ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع، الأقمار قصيرة قصيرة في ساعات أو طويلة طويلة في سنين لاختل هذا النظام الذي جعل الله لنا به القمر حسباناً وعدد شهرنا القمري أسبوعاً أو سنين.

وليس ينبغي أن يتوهم ذلك لغير العناية بما ها هنا، من دقة التكوين والتقدير والابداع في الخلق والإيجاد وعظيم الحكمة في الصنع وعلى مثال ذلك ما قلنا في الشمس والقمر ينبغي أن يعتقد الأمر في سائر الكواكب.

قد صعد الانسان على سطح القمر - بعد دراسات طويلة ومريرة مرّ بها الانسان منذ فجر الانسانية البعيد - فوجد على سطحه صحارى وقفاراً، تناهض فيها البراكين الجامدة، وجباله ضخمة عظيمة يبلغ ارتفاعها ٤٢ ألف قدم بزيادة تقرب من ١٣ ألف قدم عن أعلى جبل على الأرض، وفوهات البراكين هائلة يبلغ قطرها ٧٨ ميلاً، وجباله أقدم بكثير من سلاسل الجبال الأرضية بملايين السنين، ولم تُشاهَد حتى الآن آثار بوجود حياة من أي نوع على وجه القمر.

الأرض

الأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس، وهي الكوكب الخامس من حيث الحجم، والثالث من حيث القرب من بين الكواكب التسعة التي تتكون منها المجموعة الشمسية.

وتكاد الأرض تكون كرة إلا أنها منبطحة قليلاً عند خط الاستواء ومفلطحة عند القطبين فهي بيضوية تقريباً.

ويقدر طول قطر الأرض المار بالقطبين بـ ٢٩٠٠ ميل، وقطرها الاستوائي بـ ٢٩٢٧ ميلاً، ومحيط الأرض عند القطبين ٢٤٢٢٠ ميل، ومحيطها حول خط الاستواء ٢٤٩٠٠ ميل.

ومساحة سطح الارض ٢٠٠ مليون ميل مربع ويشكل اليابس منها نحو من ٥٠ مليون ميل مربع، والماء حوالى ١٥٠ مليون ميل مربع.

وتبعد الأرض عن الشمس ٩٢ مليون ميل ونصف، وتبعد الأرض عن القمر ٢٤٠ ألف ميل، ومقدار درجة حرارة الشمس على سطح الأرض ألف درجة فهرنهايت، وهذه الأبعاد هي التي تكفي لتهيئة البيئة الصالحة للحياة، ولو قربت الشمس عما هي عليه لمات ما على الأرض من أحياء.

وتدور الأرض على محورها بسرعة ألف ميل في الساعة، فهي تدور بنا حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، فمن كان في المناطق الحارة فهو يتحرك بسرعة معدلها ألف ميل في الساعة أو ١٦ ميلاً في الدقيقة، ولو قل معدل دورانها لطال النهار بما يؤثر في الأحياء صيفاً، ولطال الليل بما تتجمد به السوائل شتاء، وبذلك تقل مسببات الحياة، ولو زاد لانعدمت شيئاً فشيئاً.

وتدور الأرض حول الشمس في فلك يبلغ محيطه ٥٨٠ مليون ميل، فمعدل سرعتنا في هذه الحركة يبلغ ٦٠ الف ميل في الساعة، أو بنحو ألف ميل في الدقيقة.

والنظام الشمسي بما فيه الأرض ينهب الفضاء نهباً بسرعة لا تقل عن ٢٠ ألف ميل في الساعة أي أكثر من ٣٠٠ ميل في الدقيقة متجهة نحو برج هوكيوليس.

ولو زاد سمك قشرة الأرض عما هو عليه عشرة أقدام ـ فرضاً ـ لنقص الأوكسجين وقلت فرص الحياة وسببت فناء العالم مما يسببه اختلال في كثافة الهواء فتتهاوى الكواكب والأجرام.

انظر الى الدورة المائية في الأرض، فالشمس تبخر مياه البحار والمحيطات التي تعتبر مستودعاً لا ينفد من المياه، فيتصعد إلى الطبقات الباردة في السماء، فتتكثف لتسقط مياها حلوة تجري في الأنهار وتسقي الزرع والضرع.

تأمل في دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، وميل محورها البالغ ٢٣ درجة، وكيف تتكون فصول السنة التي تتغير من برد قارس إلى ربيع معتدل ثم صيف حار ثم خريف معتدل.

قال تعالى: «رب المشارق والمغارب».

فلو كان المحور معتدلاً ولم تَدُر الأرض حول نفسها لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، وكوّنت قارات من الجمد، ولظل الصيف دائماً والشتاء إلى الأبد ولهلك الناس والحياة والأحياء.

ويحيط الكرة الأرضية غلاف جوي تبلغ سماكته مائة ميل، ويتكون من مزج الأوكسجين والآزوت وثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء والآزوت وغازات أخرى، وأي تغيير في نسبتها زيادة أو نقيصة يسبب فقدان الحياة والأحياء.

ويبلغ الضغط الجوي ١٤٧ رطلاً على البوصة المربعة عند سطح البحر، وهذا الضغط هو الذي يدفع الأوكسجين خلال أغشية الرئة، وفي الدورة الدموية ليتوزع على أجزاء الجسم المتعددة. وإن أيّ تغيير يسبب ما ينتهي بالموت.

وقد وجد بالتجارب أنه في حالة ارتفاع الطيران العالي إذا تجاوز الطيار ارتفاع ألف قدم يتعرض إلى ما يسمى بانسداد الشرايين الهوائي ثم يموت إذا وصل إلى ارتفاع ١٥ الف قدم.

فهل كل هذا نشأ مصادفة بغير عناية وحكمة وتدبير، سبحانك اللّهم تعاليت عما يصفون.

قال تعالى: «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ـ أي

شيئاً واحداً ـ ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ» ٢١ / ٣٠ .

وقال تعالى :« والأرض بعد ذلك دحاها ـ الدحية البيضة ـ أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها » .

وقال تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب صُنع اللّه الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون » . (النحل آية ـ ١١٨) .

الليـــل والنهـــار

يتكون الليل والنهار من حركة الأرض اليومية حول نفسها وحول الشمس ، ومن ميل محورها البالغ ٢٣ درجة عن خط الاستواء أي دائرة نصف النهار ، فتتكون فصول السنة التي تتغير من برد قارس إلى ربيع معتدل ، ثم صيف حار ، ثم خريف معتدل .

ولولا الحركة اليومية لم يكن ليل ولا نهار ، ولكانت تكون نصف السنة نهاراً والنصف الآخر ليلاً ، وكانت الأحياء تهلك من الحر في النهار أو من البرد في الليل .

وبالحركة اليومية نرى ما كان صبحاً عند قوم هو نفسه ظهراً أو عصراً أو مغرباً أو عشاءً أو نصف ليل عند قوم آخرين .

فالشمس في كل لحظة في غروب وشروق وزوال وضحى ، ولذلك فاليوم بأكمله موجود على الأرض ونحن نمر عليه مروراً منظماً .

وتنقّل الشمس في بروج يسبب اختلافاً في طول الليل باختلاف الاقطار ، ثم ترجع فتعرض هذا الاختلاف في الفصل المقابل .

فالسنة الكاملة لكل حي هي ستة أشهر مظلمة وستة أشهر مضيئة ، وما يزيده النهار في بلد ما صيفاً ينقصه شتاء ، وتندرج الزيادة والنقيصة في كل بلد من بلدان العالم باختلاف الفصول ، فتجد تساوي الليل والنهار بيوم واحد على مدار السنة في خط الاستواء ـ أي دائرة نصف النهار ـ إذ يبلغ كل من الليل والنهار اثنتي عشرة ساعة ، وتتدرج حتى تصل إلى القطبين فترى فيها ستة أشهر متواصلة مظلمة وستة أشهر متواصلة مضيئة .

قال تعالى: «يقلّب الليل والنهار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار». ١٤/٢٤

وقال تعالى: «الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر النـاس لا يشكرون.» ١١/٤٠
وقال تعالى: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم به أفلا تسمعون.

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟» ٢٨/٧١، ٧٢
وقال تعالى: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب».
وقال تعالى: «إن في اختـلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون».

نجوم وكواكب أخرى

المريخ لا يزيد قطره على نصف قطر الأرض إلا قليلاً، وأقرب ما يكون للأرض حينما يكون على مسافة ٣٥ مليون ميل.

وقد قطع الفلكيون في أبحاثهم عنه شوطاً بعيداً وظهر لهم أنه غير خال من المياه، وأن قطبيه مغشيان بالثلج والجليد وأن به نباتات وتستكمل لجميع شروط الحياة، مما فسّر الخطوط المستوية الموجودة على سطحه، وتتغير عاماً بعد عام، ترع وقنوات أنشأها أهل المريخ.

وقد أثبتت الدراسات التي قام بها العلماء عن المريخ عند اقترابه من الكرة الأرضية عام ١٩٥٦ أن للمريخ غلافاً جويّاً أدق من غلاف الأرض وتوجد به السحب التي تحوي قطرات ماء وبلورات من الجليد.

ومن التحليل الطيفي أمكن التأكد من أن كمية الأوكسجين في المريخ أقل منها في الأرض ولكن غاز ثاني أوكسيد الكربون ترتفع نسبته عنها في الأرض بدرجة كبيرة.

أما درجة حرارته فترتفع أثناء النهار إلى ٥٠ درجة مئوية وتنخفض في الليل

إلى ما تحت الصفر بمقدار عشرين درجة مئوية .

أما عطارد والزهرة والمشتري وزُحل وأورانوس ونبتون والمذنَّبات والشهب والنيازك والنجوم التي عددها مضرب الأمثال لا يقع تحت حصر ، فبعضها ما هو أكبر من الشمس بخمسمائة مرة ونورها خمسون مرة ضعف نور الشمس ، وهي أبعد منها مليون ضعف بُعدها عنَّا .

الشعرى اليمانية تبدو للعين ثابتة مستقرة لا تسبح ولا تسري ، والواقع أنها تسرح في فضائها بسرعة ألف ميل في الدقيقة .

وثلاث من بنات نعش تسمى مابا والكزى والسيون يفُقن الشمس ناراً ونوراً ، الأولى بأربعمائة ضعف والثانية بأربعمائة وثمانين والثالثة بألف ضعف .

أما سهيل فهو أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة وكذلك نجوم المجرة الصغرى التي لا ترى بالعين المجردة ، فهي أكبر وأسطع من شمسنا العظيمة .

أما السماك الرامح فهو على حسب ما قيل : أسرع النجوم سيراً وأشدها تألقاً وأكبرها حجماً ، وتقدر سرعته بثلاثمائة وسبعين ميلاً في الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون مرة ضعف حجمها[1] .

قال تعالى :« والسماء بنيناها بأيد وإنا لَموسعون » ٥١/٤٧

وقال تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج » ٥٠/٦٠

وقال تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ » ٧/١٨٥

وقال تعالى : « قل : انظروا ماذا في ملكوت السماوات والأرض وما تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون » . ١٠/١٠١

وقال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد » ٤١/٥٢

وقال تعالى :« الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » . ٦٧/٣

(١) قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن .

وقال تعالى : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يوقنون . »

وقال تعالى : « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد . »

وقال تعالى : « فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين . »

وقال تعالى : « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون ؟ » ٤٠/٦٢

وقال تعالى :« يا أيها الناس قد جاءكم برهان وموعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » . ١٠/٧٥

وقال تعالى : « إنّ وَلِيِّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين » ١/١٩٦

وقال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ١٢/١٠٨

ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم ، واجعله زاداً لنا ليوم الدين . والحمد للّه رب العالمين .

بيروت أحمد زكي تفاحة

كتب للمؤلف مطبوعة

١ ـ اصل العلويين وعقيدتهم — نفد
٢ ـ اصول الدين وفروعه عند الشيعة الإمامية — ط ٣ نفد
٣ ـ الإيمان والعقل — نفد
٤ ـ التطور والدين — نفد
٥ ـ الاسلام والحكم
٦ ـ الاسلام عقيدة وشريعة
٧ ـ المرأة والإسلام
٨ ـ فلسفة التشريع الاسلامي
٩ ـ نماذج تربوية من القرآن الكريم
١٠ ـ حوار بين الفكر الديني والفكر المادي

كتب للمؤلف معدة للطبع

١ ـ مصادر التشريع الاسلامي
٢ ـ خلود النفس ونظرية التناسخ
٣ ـ في ظلال الاسلام
٤ ـ قادة المسلمين
٥ ـ ثورة سيد الشهداء « الامام الحسين »(ع)
٦ ـ طرائف وحكم



الفهرست